سلامه موسى

فن الحب والحياة

سلامه موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

فن الحب والحياة

الطبعة الاولى ١٩٤٧

مؤلفات سلامة موسى
وتواريخ صدورها

١ مقدمة السبرمان	١٩١٠
٢ نشوء فكرة الله	١٩١٢
٣ الاشتراكية	١٩١٣
٤ أشهر الخطب	١٩٢٤
٥ الحب فى التاريخ	١٩٢٥
٦ أحلام الفلاسفة	١٩٢٦
٧ مختارات سلامة موسى	١٩٢٦
٨ حرية الفكر	١٩٢٧
٩ أسرار النفس	١٩٢٧
١٠ تاريخ الفنون	١٩٢٧
١١ اليوم والغد	١٩٢٨
١٢ نظرية التطور	١٩٢٨
١٣ قصص مختلفة	١٩٣٠
١٤ الدنيا بعد ٣٠ عاما	١٩٣٠
١٥ فى الحياة والأدب	١٩٣٠
١٦ ضبط التناسل	١٩٣٠
١٧ جيوبنا وجيوب الأجانب	١٩٣١
١٨ غاندى والحركة الهندية	١٩٣٤
١٩ ما هى النهضة	١٩٣٥
٢٠ مصر أصل الحضارة	١٩٣٥
٢١ الأدب الانجليزى الحديث	١٩٣٦
٢٢ الشخصية الناجحة	١٩٤٢
٢٣ حياتنا بعد الخمسين	١٩٤٤
٢٤ حرية العقل فى مصر	١٩٤٥
٢٥ البلاغة العصرية واللغة	١٩٤٥
٢٦ التثقيف الذاتى	١٩٤٦
٢٧ عقلى وعقلك	١٩٤٧
٢٨ تربية سلامة موسى	١٩٤٧
٢٩ فن الحب والحياة	١٩٤٧
٣٠ طريق المجد للشباب	١٩٤٩
٣١ (مجموعة قصص)	
٣٢ محاولات	١٩٥٣
٣٣ هؤلاء علمونى	١٩٥٣
٣٤ كتاب الثورات	١٩٥٤
٣٥ الأدب للشعب	١٩٥٦
٣٦ دراسات سيكولوجية	١٩٥٦
٣٧ المرأة ليست لعبة الرجل	١٩٥٦
٣٨ برنارد شو	١٩٥٧
٣٩ أحاديث إلى الشباب	١٩٥٧
٤٠ مشاعل الطريق للشباب	١٩٥٩
٤١ مقالات ممنوعة	١٩٥٩
٤٢ الانسان قمة التطور	١٩٦١
٤٣ افتحوا لها الباب	١٩٦٢
٤٤ الصحافة حرفة ورسالة	١٩٦٣
٤٥ معجم الأفكار	

مقدمــــة

كتبت هذا الكتاب في ضوء اختبلراتي للوسط المصري ، وقد عالجت موضوعه من جملة وجهات فلسفية وسيكولوجية واجتماعية

ونحن نعيش في حضارتنا القائمة عيشا « مكيفاً » بعادات المجتمع موجهاً إلى أهدافه مدرباً على أساليبه . ولذلك تنساق انسياقاً كأننا ذاهلون ، لا نقف ولا نسائل عن القيم البشرية في هذه العادات والأهداف والأساليب

وليس شك أن غاية الحياة أن نحيا الحياة على مستواها السامي . ومعنى هذا الكلام هو أن نعيش بما لدينا من كفاءات بشرية تسمو على كفاءات الحيوان . أي يجب أن نعيش بالتعقل ، وليس بالغريزة والعاطفة . وفن الحياة هو ، في النهاية ، الارتفاع بكفاءاتنا الموروثة إلى ما كسبناه واقتنيناه من التراث الاجتماعي الثقافي

ولكن هذا التراث الاجتماعي الثقافي يجب ألا يسوقنا وألا يضلنا

عن القيم الأصلية في الحياة . وقد ألتفت في الفصول التالية إلى ثلاثة أو أربعة أشياء لكل منها مكانة مركزية في البحث عن فن الحياة

ألتفت أولاً إلى أن النجاح يجب أن يكون كلياً في الحياة ، وليس في الحرفة أو الزواج أو الكسب أو المجتمع . فان كلمة النجاح في مجتمعنا الاقتنائي كثيراً ما يشتبه معناها بمعنى الاثراء . ولكن النجاح الصادق هو الذي يجعل نجاحه كلياً شاملاً متوافياً لنشاط حياته كلها

وألتفت ثانياً إلى أن المجتمع الذي نعيش فيه كثيراً ما يضلل بنا ويبعدنا عن القيم البشرية . بل هو أحياناً يسخرنا في أهدافه التي قد تناقض ما ننشد من رقي أو سعادة . فهو منا بمثابة المدينة التي تكتنفنا بمساكنها وأضوائها الصناعية وضوضائها واهتماماتها الزائفة ، فنعيش فيها ونكاد ننسى أنه على مسافة ثلاثة أميال منا ينهض الريف في طبيعته النضرة وأشجاره ومياهه وحيوانه . بل ننسى أن في السماء نجوماً وكواكب . وقد نألف عادات هذا المجتمع فلا نجد النشاط إلى تغييرها ، ولا ننهض إلى الخروج إلى هذا الريف القريب . وكذلك الشأن في تلك القيم الاجتماعية وأثرها في نفوسنا حين نعيش في أسر هذه القيم الزائفة طيلة حياتنا

وقد أحتجت إلى أن أوضح أن السعادة كما ينشدها الجمهور انما هي في أغلب الأحيان ذهول وتبلد ، أو استرسال في العواطف الحيوانية التي تحركها غرائزنا السفلى . وأن هذه السعادة ليست جديرة بانسان راقٍ يرتفع إلى أن يجعل من حياته فنا . وعندي أن التعقل هو صميم السعادة . وأنه مهما فدحت الكوارث فان التعقل يواجهها في شجاعة وتجلد وفهم

كذلك ألتفت إلى قيمة الثقافة من حيث أنها تكفل لنا توسعا ذهنياً ينتهي إلى أن يكون توسعاً حيوياً . لأنها ، أي الثقافة ، تزيد اهتماماتنا وتعوّدنا عادات ايجابية عندما نصل إلى الشيخوخة . وعنيت مع شيء من الإسهاب بقيمة الحب في مجتمعنا وفي السعادة الزوجية . كما أني أسهبت في بحث عاداتنا وكلماتنا الجنسية وما لذلك من أثر في سعادتنا العائلية

وكان يمكن ان أسمي هذا الكتاب « الحياة السعيدة » لولا أن كلمة السعادة قد ابتذلت في معان سفلية . كما أن هناك التباسات واشتباهات كثيرة عن حقيقة معناها . وقد أحتجت إلى التنبيه عن ذلك . ولكن في عبارة « فن الحب والحياة » ما يرفع القارىء عن مبتذلات كلمة « السعادة »

وأرجو أن يكون في الفصول التالية توجيه لقرائها من الشباب والكهول .

س . م

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

يعيش الحيوان على المستوى الفطري : يأكل ويشرب ويتناسل ولكننا نحن البشر نعيش على المستوى المدني الفني الثقافي . وقد لا يصدق هذا على جميع البشر ، أو بتعبير أصح ، قد لا يصدق هذا القول من حيث الدرجة التي يبلغها البشر في المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى في الأمة المتمدنة . فاننا مازلنا نجد الطبقات الفقيرة في مصر والهند تعيش على المستوى الفطري . بل الحال كذلك أيضا في الطبقات الفقيرة في أمم أوربا الجنوبية حيث يقنع أفرادها بالحياة السلبية ، أي باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعا لا يلتذون الحياة وانما يكابدونها .

ولكن جميع الأمم المتمدنة تحوي طبقات من الشعب تعيش الحياة الايجابية ، إذ هي قد اطمأنت من ناحيتي الجوع والمرض . بل هي قد استبعدت الموت إلى ما بعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهي نجد

في كفاية العيش ما يتيح لها الاستمتاع الروحي والمادي . وهذه الطبقات تمثل في عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الأفراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفني الكمالي لأن الضروريات تتوافر إلى الحد الذي لا يحسب لها فيه حساب ولا تكون سبباً للهموم والاهتمامات . وليس هذا العصر بعيدا ، بل هو أقرب الينا مما نتخيل

والانسان في كفاحه الاجتماعي ينشد الضروريات أولاً حتى إذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات ضروريات الأجيال القادمة . فهي ترف أولاً يقتصر على أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانياً تشمل طبقة كبيرة . وأخيراً ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدن المثقف

أنظر إلى الطعام : نشد فيه الانسان البدائي الشبع . لا يرجو غير هذه الضرورة الفطرية . وانظر إلى المسكن الذي كان يبنيه للاحتماء من الوحش أو العدو أو الجو ومازال يسمى « بيتاً » لأنه كان للمبيت في الليل فقط . وانظر إلى اللباس الذي كان يتخذه للدفء . أجل لقد كان الطعام والمسكن واللباس من الضروريات ولكن من منا نحن المتمدنين يقنع من هذه الثلاث بالضروريات الفطرية في عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التي لا تزال في أسفل الدرج من السلم الاجتماعي ، وصحيح أن هذه الطبقات لا تزال تقنع بالضروريات الفطرية من المسكن واللباس والطعام ، ولكن في كل أمة طبقات أخرى استمتعت بقسط كبير من المال والثقافة والحضارة . وهي لذلك تتوخى الفن في كل ما تتناول من عمل .

فالمسكن ليس مأوى أو مبيتاً فقط ، إذ هو متحف أيضا ، يتزين بالأثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف الأنيقة

سيداتنا وآنساتنا لايطلبن من اللباس دفئاً قدر مايطلبن منه زينة وجمالا . والمائدة التي تحمل ألوان الطعام نتفنن في ترتيبها وايجاد الأطباق الثمينة والآنية الغالية عليها . وهذا إلى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها نشاطاً ذهنياً فنياً وحتى لنكاد نأكل بعقولنا وأذواقنا العالية

فهنا فنون في البناء والأثاث واللباس والمائدة نرتاح إليها ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التي كان يقنع بها الانسان البدائي-ومازال يضطر إلى أن يقنع بها أو بما يقاربها الفقير المغبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا إلى مستوى من الجمال نزداد به لذة واستمتاعا بل نزداد به فهما وتعقلا

وبالفن نرفع المشي إلى الرقص . ونرفع النثر إلى الشعر . ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع أن نحيا الحياة الفنية فنهدف إلى الفن في الحياة ، والبلاغة في السلوك والتصرف . ويجب أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لأنه إذا كان من الحسن أن نتخذ الزي الفني للباسنا فان من الأحسن أن نتخذ الزي الفني لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الأولى لكل انسان على هذا الكوكب أنه سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التي يصفها شكسبير بأنها « قصة يقصها

أبله فتحتفل بالضوضاء والغضب ثم لا تكون لها دلالة ؟ » أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لأن قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

وقد يخطر بذهن القارىء عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البليغة اننا انما نقصد إلى زخارف وبهارج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعنيان في لبابهما حكمة وسدادا . لأن كلمات الحكمة هي أسمي أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هي الحكمة ؟

هي العمل أحياناً بالمعرفة
وهي أحياناً تجاهل المعرفة
وأخيراً هي التمييز بين القيم والأوزان

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه يتعقل في حين أن الحيوان غريزي يندفع . ونحن نهدف إلى قصد في حياتنا في حين هو يعيش جزافاً . ونحن نقرر مصيرنا بأيدينا في حين هو ينساق خاضعاً للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلي الذي يرتب النتائج على الأسباب ، ولكنه يطابق المنطق العملي الذي نحيا به في مجتمعنا المتمدن

وحياتنا في عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحياناً تلتغز . وقد كان لآبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها في طريق الحياة الساذجة التي كانوا يحيونها . ولكن هذه الأعلام لم تعد تكفي لأرشادنا في طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن في حاجة إلى تعاليم جديدة نتعلم بها كيف نحيا الحياة الفنية أي الحياة الحكيمة وكيف نقضي سبعين أو ثمانين سنه على هذا الكوكب ونحن ننمو وننضج إلى الايناع . فلا

تكون حياتنا مكابدة مؤلمة بل التذاذاً روحيا وماديا . ونحن في مجتمعنا انما نحصل من التعليم ، في الأغلب ، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب الحياة السامية . لأننا ننسى أن الحياة أعم وأهم من الكسب . واننا نكسب كي نعيش ولا نعيش كي نكسب كما هي الحال الآن.

وانما صارت الحال كذلك لأن شبح الفاقة يلوح على الدوام في مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر كل شيء آخر . لأننا نعيش في اقتصاديات القلة في حين أن اقتصاديات الوفرة على الأبواب تنتظرنا بل تنادينا . ولا نحتاج إلا أن نومى بأصبع الرضا فيغمرنا الخير الوفير الذي لا نعرف فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ ، أي عندما نوميء هذه الإيماءة ، ونرضى بالتعاون بدلا من المباراة ، في الانتاج ، نستطيع جميعنا أن نعيش العيشة الفنية ونحيا الحياة الحكمية وان نتوخى مأرباً فنياً في كل ما نتناول من معارف أو معايش

وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة في الوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون من تعاليم أو أنظمة . ولكن أين هذا التفاؤل من حقائق الدنيا ؟ من الأمراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عينيه ويرى الدنيا ظلاماً ؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لحمه الطري ووجهه الحلو في تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الإعدام من طبيبه الذي ينبئه بمرض لا يعالج ؟

ولكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لأن الكوارث نفسها جزء من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذي لم تكرثه كارثة تصل إلى

مخ عظامه ، وذلك الذي لم يحس اللوعة يغص بألمها ويجمد من هولها ، ذلك الانسان لم يحي الحياة الفنية ولم يعرف حكمتها . وأقل ما يقال عنه أنه لم يعش الحياة الكاملة . ومع ذلك نحن نبالغ . فإن كلاً منا يعرف أن أعظم المصائب التي كان قد توقعها لم تقع له . وان بعض هذه المصائب كان مفيداً قد انتفع به . انظر إلى قول داروين : « لو لم أكن متمرضاً إلى حد عظيم لما أتممت كل هذا القدر الكبير من الأعمال » وذلك لأن التزامه السرير للمرض قد اتاح له الفرصة للتفكير وتصور الأحياء على طراز جديد

وانها لحكمة تلك التي نطق بها كاهن انجليزي ، قبيل خلع الملك تشارلس الأول ، حين قال : « ان أعظم ما ينكب به انسان الا ينكب . واعظم ما يعاقب به انسان ألا يعاقب »

وكثيراً ما نعيش سادرين ذاهلين حتى إذا كرثتنا الكارثة تنبهنا كأننا قد استيقظنا من نوم فينبلج لنا نور وتنكشف لنا حقائق ما كنا لنراها لولا هذه الكارثة . وأيام المرض في السرير كثيراً ما تكون أيام التنبيه والتجديد

ونحن في حاجة دائمة إلى استعمال ذكائنا كي نميز بين لذة العاطفة ولذة التعقل ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية ، وبين الامتياز الذاتي في النفس وبين الامتياز المادي في العقار . أي بين ما نكونه وبين ما نملكه

والحياة الفنية هي الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن والجمال لا نزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح الذي يحدد كلا منهما . ولكن من منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسي . وأشياء أخرى نعرفها بالاختبارات الذهنية ، وليست الأولى دون الثانية وأن تكن في مرتبة أخرى . وإذا كنا ننشد الفن والجمال في الأثاث والبناء والرسم فاننا يجب أيضاً ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن ننشد الجمال في الحياة ، في الشخصية الرشيقة ، والذهن اللبق ، والجسم الأنيق والمعارف المنسقة واللغة البليغة كما في الأخلاق السامية والأهداف الروحية والعلاقات الاجتماعية

نحن غريزة وعقل

كي نعيش العيشة الفنية ونحيا حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف أن كلاً منا مركب من غريزة وعقل . الغريزة هي قديمنا الموروث ، هي التقاليد الفطرية ، هي ذاكرة النوع الجامدة . والعقل هو جديدنا الذي يتعلم وينمو ويميزنا بالفهم عن الحيوان

ذلك أن الحيوان يعيش بالغرائز أو أن ٩٩ في المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاتي على مستوى منخفض ليس له تعقل موضوعي . ولكن الانسان بعقله يستطيع أن يجعل فهمه موضوعياً وان يصل إلى حقائق الدنيا كما هي فى حقيقتها أو ما يقرب من ذلك . وعلومنا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا انما هي ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز

الحيوان في ذهول بغرائزه وكأنه في حلم . والانسان بالمقارنة به في تنبه ويقظة بعقله الذي يجعله يتصرف وهو يدري أنه يتصرف . ولكن الحيوان لا يدري

وهذا العقل هو الذي يجعلنا على دراية بالموت والفقر الكوارث حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك ، ولكن هذا الشقاء « انساني » ولا نرتضي النزول عنه كي نعيش بالغرائز . نعيش في ذهول كما يفعل الحيوان . وعندما نربي انفسنا أو ابناءنا انما نعمد إلى هذا العقل ونستنبط التفكير ومحاولة التعرف إلى الأشياء كما هي في حقيقتها وليس كما تصورها لنا غرائزنا

وواضح أنه ليس هناك انسان يعيش بعقله فقط ، يتعقل كل شيء ويتفهم الدنيا تفهماً موضوعياً . لأن كثيراً من تصرفنا يعود إلى الغرائز التي نندفع بها أحياناً اندفاع الحيوان أو نسلط عليها التعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته

ومهما حقر الانسان وهان وانحط فانه يستطيع ، عندما يتأمل عقله ، ان يقول : ما أعظمني ! أي ما أعظم عقلي الذي يتجرد من غرائزي ، ويبحث النجوم والكواكب والأخلاق والشرف ، والسياسة ومستقبل البشر ، وفلسفة الكون وتطور الأحياء

ومهما عظم الانسان وسما ونضج فانه يستطيع ، عندما يتأمل غرائزه ، أن يقول : ما أحقرني ! أي ما أحقر هذه الغرائز التي أندفع بها إلى الطمع والحسد والعدوان والاقتناء والانغماس والنهم والشر !

ولأن الانسان عرف الخسة التي تنحدر إليها غرائزه واحس مضض النفس وصداع القلب في المواقف التي اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لأنه عرف هذه المواقف عمد في كثير من الأحيان إلى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك ومن هنا نشأت الرهبنة في بعض الأديان

انكاراً للغريزة الجنسية ولبعض الغرائز الأخرى كالاقتناء والتسلط والحسد والانغماس الخ كأن الغاية ان نعيش بالتعقل ولو مع الحرمان

ولكن هذا الانحياز نحو التعقل وانكار الغرائز لا يطيقه الا الاقلون . بل يجوز لنا أن نشك حتى في هؤلاء « الاقلين » ، وهل اطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقت هذه الغرائز كامنة مختبئة في أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثورة على العقل فقط بل أيضاً للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ ويتصرفوا التصرف السيىء المخبول ؟

ونحن نعرف من السيكلوجية أن الغريزة وقت التهابها عندما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلي وتطلب المنفس والمخرج ، فإذا لم تجدهما اندست وبقيت بقوتها تبحث عن المخارج الضعيفة حتى إذا وجدتها انفجرت فلا يكون منها غير الأذى الفادح لشخصيتنا . وأولئك الذين حبسوا الغريزة الجنسية مثلا لم ينجحوا قط في الغائها ومحوها . وقصارى ما وصلوا إليه عربدة جنسية مختلفة الألوان والأسماء . أو هم قد خدعوا أنفسهم من حيث لا يدرون ، فاتجه نشاطهم الجنسي إلى ألوان قاتمة من السلوك والتصرف تؤذي المجتمع وتفتت شخصياتهم هم . بل أن السيكولوجية الحديثة لتعرف الواناً من الهوس الديني ترجع في الأصل والأساس إلى الحرمان الجنسي

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لأننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتنا ، إذ اننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما أي نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذي نعيش فيه دون قمع أو جحد .

وفي أغلب الأحوال ينتهي معنى التهذيب للغرائز إلى الاعتدال فلا نسرف في الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نغلو في الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة « غريزة » من الكلمات الغامضة لأننا نجهل أصلها هل هو طبيعي أم اجتماعي . ولكنا عندما نتأمل نشاطنا الاجتماعي كله ، ذلك النشاط الذي ينظمه العقل ، وان كان مرجعه غريزيا ، نجد أنه يعود إلي ما يشبه أن يكون غريزة واحدة هي شهوة الأمن والطمأنينة

وهذه الشهوة أصيلة في الطبيعة البشرية ، وهي التي تدفعنا إلى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس في الكسب ، كما أنها هي الأصل في الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الأشياء مدفوعين بالخوف أي الرغبة في الطمأنينة ، ثم ننساق في عادات هذا النشاط التي تتملكنا فلا نعرف أين نقف . كتلك البهيمة التي نشدها إلى الساقية فتدور ونجرها مكرهة حتى إذا جئنا كي نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت في دورتها بقوة الاندفاع الأول

فهناك مثلا من ينساق لغريزة الخوف ويطلب الطمأنينة بجمع المال . وهذا حسن إذا عرف أين يقف ومتى يقنع بمقدار من المال يحقق هذه الطمأنينة . ولكن بعيد جداً أن يعرف هذا ، لأنه حتى بعد أن يحقق هذه الطمأنينة ويجمع من المال ما يكفيه هو وعيلته ، ينساق في عادة الجمع . فلا يكون المال خادمه بل سيده الذي يستبد به ويحمله على الجهد أكثر من عماله الذين يخدمونه ، حتى ليصل إلى مكتبه أو متجره قبل دخولهم ويخرج بعد خروجهم

وهذا هو شأن كثير من الناس الذين يشقون لأنهم ينساقون

مندفعين بغرائزهم دون أن يسلطوا عقولهم عليها فيعتدوا وينظموا نشاطهم كي يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شأن الغرائز أنها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاء النوع وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل أن تجهزنا بالعقل وذلك كي تكفل لنا البقاء والتغلب في ميدان التنازع بين أنواع الحيوان وأفراده للبقاء . اعتبر مثلا غريزة التناسل . فان رجلاً واحداً ، واحداً فقط ، يحمل في جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفي لتلقيح أناث النوع البشري كله . ونجد مثل هذا الاسراف في سائر الغرائز . فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبة في التسلط بامتلاك هذا الكوكب إذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك وهتلر ، بل لقد كان الطاغية فاروق يسرق وينهب ويغش ويقامر كي يجمع المال ، مع أن ما كان يملكه كان من الكثرة بحيث يكفي انساناً مليون سنة . وحين نشرع في الاقتناء نتوهم اننا يجب أن نجمع ما يكفينا ألف سنة

وقيمة العقل أنه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال ولكن بلا زهد أو نسك . أي بلا انكار للغرائز . وقد يكون لقليل من الزهد قيمة في التذاذ العيش ، أي في التأنق في الاختيار بالامتناع عن قبول كل ما يرد . كالعطش يجعل الشراب اسوغ والجوع يجعل الطعام امرأ . ولكن الاستمرار عليهما جنون قاتل

وتقتضينا الحياة الفنية ان نعيش بالعقل والغريزة معاً في مصالحة ووفاق بين الاثنين . ولكن في انحياز نحو العقل لأن العقل انساني والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الانسان الانساني والانسان الحيواني هو أن الأول يعتمد في الأكثر على عقله في حين يعتمد الثاني في الأكثر على غرائزه

كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات انفجارية . وهي تكسبنا الطاقة التي ننبعث بها إلى النشاط الذهني أو الجسمي . ولولا هذه القوة الانفجارية لما تحركنا إلى الطموح أو الدراسة أو الكسب. وهي لذلك جهاز نافع أيام الصحة . ولكنها تستحيل إلى قوة معربدة أيام المرض نتطوح بها إلى الجنون أو الشذوذ أو الاجرام

والعواطف في مجموعها اجتماعية ، أي أننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح أن هناك عواطف نرثها وراثة طبيعية كالعاطفة الجنسية أو عاطفة الجوع إلى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفة « الطبيعية » تتخذ ألواناً اجتماعية

والمجتمع الذي نعيش فيه بما له من طرق في كسب العيش وأساليب الانتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل منا . فاذا كنا نعيش في نظام اقتصادي يقوم على المباراة فان صفات الانانية والغيرة والرغبة في التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا

إلى العمل والكسب ، وأحياناً تستحيل هذه الصفات إلى عواطف سيئة كالحسد والتسلط والخوف

وتحدث لنا عواطف أخرى إذا كنا نعيش في مجتمع تعاوني ليس فيه سيد ومسود وغني وفقير وكانز ومحروم كما هي الحال في المجتمعات الاشتراكية

ولأننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة ، فان جميع الرذائل التي تستتبعها المباراة تتخذ شكلاً عاطفياً في نفوسنا . ولذلك نشقى كثيراً بالأنانية والحسد والرغبة في التفوق والاقتناء والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادي محدود الفرص . فقد يجد غيري فرصة لا أجدها أنا فابتئس لتخلفي واغار من تقدمه واحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذيني أو هي تبعثني على الافراط في الجهد حتى أموت قبل الأوان بزيادة الضغط للشرايين أو بعجز القلب أو بالاختلاف في التمثيل السكري أو قد أبقى مريضاً بهذه الأمراض وغيرها واشقى بها . وهذا إلى هموم لا تنقطع تغشى نفسي بالغم والكآبة ، وقد تحملني على الانتحار

ولذلك نحتاج ، كي نعيش الحياة الفنية في هناء ، ان نسوس عواطفنا حتى تدفعنا إلى السير متئدين ، وحتى لا تكون انفجارية تثور بنا وتبددنا . وأول ذلك أن نعرف ، بضمير يقظ وبعقل متزن ، اننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة . وأنه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب أن نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذي نستضيء به . فلا نتطوح في مطامع لا نقوى على تحقيقها فنكون لها

عبيداً نجري ونهرول طوال حياتنا كأننا مسخرون في جمع المال واقتناء العقار

وليس هنا مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى نثبت للقارىء أنها كلها تقريبا تعود إلى مجتمعنا . فان غيرة المرأة من حماتها ، أو العكس ، وكذلك مناكدة الرئيس لمرؤوسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الأولاد من الاخطار ، كل هذه العواطف تعود إلى نظام نفسي ينهض على أساس المجتمع الاقتصادي الذي نعيش فيه

وقصارى ما نستطيع أن نبسطه في هذا الفصل هو نصائح موجزة نبغي بها علاج المجتمع الاقتنائي الذي نعيش فيه . أي علاج الفرد مما تجلبه عليه العواطف التي غرسها فيه المجتمع . أما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة إلى التعاون ومن الاقتناء الفردي إلى الاقتناء الاجتماعي

١ ـــ من شأن العواطف أنها لا تؤذينا إذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة . أي وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فنحن نتحمل الافلاس التام ، أو موت الابن أو الأم ، أو كارثة الغرق أو الحريق أو الطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة تناكدنا كل صباح على الطعام أو القهوة . وكذلك لا تتحمل الزوجة معاكسة حماتها . ولا يتحمل الطالب توبيخ أبويه كل يوم لفشله في الامتحان . أي إذا تكررت المناكدة أو المعاكسة كل يوم ، ولو كانت لاسباب تافهة ، أدت إلى الانهيار العصبي الخطير . لأن العبرة بالتكرار

٢ ـــ لهذا السبب يجب الا تعيش الزوجة مع حماتها ابداً . وإذا

كانت هناك ظروف تضطرهما إلى الاشتراك في العيش فليكن هذا على دراية منهما . أي يجب على كل منهما أن تعرف انها في حالة شاذة وان تحتاط من الوقوع في المناكدة أو المعاكسة أو المضارة

٣ ــ يجب على الأب ، إذا فشل ابنه أو بنته في الامتحان ، الا يعمد إلى تقريعه كل يوم . لأن هذا التقريع قد يؤدي إلى انهيار عصبي خطير . وخاصة إذا كان بين ١٧ ، ٢٥ . ومرض الشيزوفرينيا الذي يتفشى كثيراً في مصر يعود إلى كراهة الشبان للدنيا لأنهم حرموا الاستمتاع بها . وقد كان يسمى « مرض المراهقة » لأن أكثر اصاباته للشبان فيما بين سن ١٥ وسن ٣٠ . وأعظم علاماته الخلوة والصمت والتبلد والسكون . ثم يتطور إلى أسوأ

٤ ــ الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها

٥ ــ إذا ثقلت العاطفة فإن النشاط الجسمي يخفف من ثقلها . حتى المشي والجري يخففان من ثقلها

٦ ــ من الواجب أن ننبه الرؤساء في المصانع والمكاتب إلى أن يكفوا عن معاكسة مرءوسيهم حتى لا يكون احدهم كالحماة التي تبعث بزوجة ابنها إلى المارستان لأنها لا تفتأ توبخها وتبخسها

٧ ــ يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفال الأربعين للمتوفى أو التفجع في الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظاهر تحيي الحزن القديم عند الغير

وهذا أحسن ما نستطيع أن نقول في مجتمع المباراة الذي نعيش فيه

التربيـــة

لا تقل طفولتنا الفطرية عن ١٧ سنة . ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة . ومعنى هذا أن مدة التربية عندنا طويلة . وذلك أننا لا نولد بأجهزة من الغرائز التامة التي نعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التي تسبح عندما تخرج من بيضها ، ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيور التي تحتاج إلى شيء قليل من التعليم كي تطير وتجرؤ على اقتحام الجو

ذلك اننا نحن البشر قد استغنينا عن الكثير من غرائزنا أو قد وضعناها في الصفوف الخلفية من كياننا النفسي وأقمنا العقل وصياً عليها يديرها ويوجهها . حتي أننا لا نأكل ولا نتناسل في استسلام كامل للغرائز إذ اننا نسلط العقل هنا أيضاً ونجعل له التصرف الأعلى . وصحيح أننا لا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز ولكننا نستطيع التصرف بها وتوجيهها

وتسلط العقل يجعل التربية ضرورية لكل فرد منا . وخاصة إذا كنا نعيش في مجتمع راقٍ أي أرقى وأكثر تركباً من المجتمع الزراعي أو البدوي . وتتجه التربية في عصرنا إلى ايجاد عادات ومهارات نكسب بها العيش . وليس من شك في قيمة هذه التربية وخاصة في مجتمع لا يزال يعيش على اقتصاديات القلة وليس على اقتصاديات الوفرة التي يلتمع فجرها الآن في الأمم المتقدمة في الانتاج الآلي . ولكن التربية يجب أن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب

وكذلك يجب ألا ترمي التربية إلى تعليمنا المعارف والثقافة فحسب وانما يجب أن توجهنا الوجهة التي نتعلم بها وحدنا . وكي نوضح قصدنا نطلب إلى القارىء أن يقارن بين أرسطو طاليس وبين تلميذ في السنة الثالثة أو الرابعة من مدارسنا الثانوية . فليس من شك أن التلميذ يفضل هذا الفيلسوف في كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن أرسطو طاليس كان يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف . وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا إلى خمسين أو ستين سنة حتى يصل إليه . بل قد لا يصل إليه لأنه لا يجد من يرشده

وبكلمة أخرى نقول أن ميزة أرسطو طاليس كانت منهجية خاصة بالحياة . أما ميزة التلميذ فمعرفية خاصة بالحرفة

ليست التربية السديدة أن أعرف وإنما هي أن أعرف كيف أعرف أي كيف أعلم نفسي وأزيد معارفي وأكون طالباً مدى حياتي . وليست التربية أن أعرف كيف أكسب العيش بل هي أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب في نمو

لشخصيتي وترقية لذهني . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفي للكسب ، إذ يجب أن تهدف إلى النجاح في الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة والنجاح فيها يقتضي النجاح في الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفني والذهني الخ

يجب أن تهدف التربية إلى أن تحمل كلاً منا على الاهتمام بالاثاث الأنيق والرسم الفني كما نهتم للكسب في مجتمع اقتنائي تعيش أفراده بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا إلى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه إلى تقدير الوان الجمال في الطبيعة : القمر في الريف والشمس في البزوغ والبحر والقفر والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شيء إلى درس الفنون وإلى ترقية الاحساس الفني بحيث نسلك ونتصرف ولنا في كل ذلك مأرب فني . حتى إذا سرنا في حديقة استمتعنا بالزهور وهي على شجرتها في اشراقها وايناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها أي قتلها

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاى

ويجب أن نزداد رغبة في امتلاك هذا الكوكب نفسياً وذهنياً وفنياً كلما ازداد هو تقلصاً بالمخترعات الجديدة حتى تتسع آفاقنا ، حسا وذهنا ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل تشمل شؤون العالم كله والبشر جميعهم

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن أي تزيد التعقل حتى نعيش في يقظة ونطلب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون . فلا نعيش ذاهلين ذهول الحيوان الذي تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو يعود في الأغلب إلى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبلد ذهنه ، وبين شيخ لا يزال لذهنه حدة وفتوة ويقظة وذكاء ، يعود إلى أن الأول لم يتعود القراءة ، وأن الثاني قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مألوفة في الذاكرة سهلة الاستحضار . ولما كانت المعاني مجسمة في كلمات فان من البعيد جداً أن نجد رجلاً يهوم ويتبلد ذهنه مادامت الكلمات حاضرة معدة لتنبيهه . لأن الكلمات أفكار

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة لأن الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة وتبقى هذه المرانة إلى الشيخوخة

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية شاملة كلية . أي يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا بؤرة أي نقطة للتعمق والتخصص في المعارف . ولكن يجب أن نتشعع من هذه البؤرة العميقة إلى التوسع في الآفاق الذهنية الرحبة . كما يجب أن يكون كل منا سقراطياً . أي يعرف أنه لا يعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات ويبقى على هذا حتى يموت « وعلى صدره كتاب » كما قيل عن الجاحظ

وفي المستقبل القريب ، بل القريب جداً ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة إلى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذي

سيزيد عاماً بعد آخر . وكثير منا حتى في عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف ينتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنا إلى النغمة التي ما نفتأ نعزفها وهي اننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة ، وكيف يتعمقون في حياتهم ويتوسعون ، ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية ان يحيوا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاستطلاعي التساؤلي اليقظ الذي يشتهي المعارف ويعرف أيضاً أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : هو الحياة نفسها في تعمق وتأنق . وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق

وأخيراً نقول أن التربية الحقيقية هي التربية الذاتية . فلا ييأس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعي أو لأن ظروف حياته الماضية لم تهيء له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع أن يشرع في أي وقت وان يضع البرنامج الدراسي الذي تحتاج إليه تربيته وهو اقدر انسان على وضع هذا البرنامج إذ هو الوحيد الذي يعرف حاجاته وكفاءاته

قيم جديدة في التربية

كثيراً ما أتأمل واقارن بين الحكمة والمعرفة نستخرجهما من الخبرة بالدنيا والمجتمع ، أو نستخرجهما من الكتب والدراسة

تأمل شاباً حصل على الشهادة التوجيهية ثم التحق باحدى الكليات في الجامعة . ودرس عاماً كاملاً ، علماً أو فناً كالهندسة والزراعة أو الأدب أو الفلسفة . ثم قارن هذا الشاب بزميل له قد حصل على الشهادة التوجيهية ولكنه أمضى هذا العام في تجارة أو حرفة ما بحيث اضطرته الظروف إلى الكسب أو الخسارة وإلى الاختلاط بالجمهور ، يؤدي الخدمات المختلفة لأفراده سواء أكانت هذه الخدمات في مكتب أم في متجر أم في مصنع

تأمل هذين الاثنين آخر العام وقارن بينهما ، ثم قل أيهما أكثر حكمة .ومعرفة ، ذلك الذي قضى عاماً في الجامعة أم الآخر الذي قضى هذا العام في المجتمع ؟

الذي لا شك فيه أن هذا الثاني أكثر حكمة ومعرفة

الأول قد عرف الكيمياء أو المبادىء الهزيلة للفلسفة أو القليل من النبات أو الحيوان أو الهندسة الميكانيكية . أما الثاني فقد عرف الناس والبواعث البشرية للسرور أو الغضب ، وللأمانة أو الغش ، وللطمع أو الرضا ، وفهم معاني النجاح وعلل الخيبة

الأول علمته الجامعة علماً أو فناً ، أما الثاني فقد رباه المجتمع وفتح قلبه وعقله لمعاني الحياة

* * *

الحياة ، المجتمع ، الاستقلال الشخصي ، الهدف

كل هذه الأشياء لا تستطيع المدرسة أو الجامعة ان تعلمنا اياها ، وهي تتركها لنا بعد أن نتخرج ونشرع في درسها

ولكن الأمريكيين عرفوا هذا النقص في المدرسة والجامعة ولذلك عودوا ابناءهم الكسب والعمل مدة الدراسة . حتى ان طالب الجامعة في الولايات المتحدة يكاد يخجل من ابيه أو أمه إذا احتاج إلى سؤالهما لمساعدته ، أو هو يعمل في المدينة الجامعية التي يقيم فيها . يعمل أي شيء ، ولا يحتقر عملا ما دام شريفاً لا يمس ضميره

يعمل جرسوناً في مطعم أو مقهى . ويعمل منظفاً للمتاجر أو بائعاً فيها . وقل أن تجد مكتبة أو مطعماً أو مصنعاً في نيويورك أو غيرها الا وتجد بين عمالها طلبة من الجامعة يعملون ساعة أو ساعتين في النهار أو الليل يكسبون منها ما يكفيهم للانفاق على تعليمهم

وهذا العمل الكاسب يكسبهم استقلالهم ، وهم بعد في العشرين من العمر أو حواليها ، كما يبصرهم بشؤون المجتمع إذ يلتقون بأفراده

المختلفين ، ويتعرفون إلى أخلاق جديدة ، ويسمعون آراء غريبة لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوها لو أنهم كانوا قد قنعوا بمحاضرات الجامعة ومذاكرة الدروس

ويتعلمون فوق ذلك القيم الروحية للانسان المتمدن . وأعظمها قدراً أن الذي يستهلك طعاماً أو لباساً أو سكنى أو خدمة يجب أن ينتج مثل هذه الأشياء ، وأن الرجل الصالح هو ذلك الذي ينتج لمجتمعه أكثر مما يستهلك . وهذا هو مقياس الصلاح في عصرنا

ويتعلمون أخيراً أنه ليس هناك ما يحتقر من الأعمال . فليست فلاحة الأرض أو كنس الشوارع أو بيع البقول مما يحتقر ، لأنه ما دام المجتمع يحتاج إليها فلا يمكن أن تكون حقيرة

قبل نحو ربع قرن هبط القاهرة أكثر من مائتين من الطلبة الأمريكيين الذين كانوا يطوفون العالم وينزلون في مدنه ويتعرفون إلى شعوبه . وكانت هذه السياحة جزءاً من تعليمهم ومحاولة امريكية بديعة لجعل التعليم عملياً اجتماعياً بقدر المستطاع

واستدعتني الادارة المشرفة على هؤلاء الطلبة ، انا والآنسة مي كي نتولى الاجابة على الاسئلة التي يسألها هؤلاء الطلبة . والتقينا في قاعة كبيرة في فندق شبرد

وهناك صار الطلبة يسألوننا اسئلة عميقة عن تاريخنا وحكومتنا واقتصادياتنا ، وعن أحوال المرأة والعامل ويدونون الاجابات ، وعرقت ولهثت ورأيت مي تعرق وتلهث

وكان أحد الطلبة قد سألني : هل يجد طلبتنا أعمالا حسنة يكسبون منها في القاهرة مدة دراستهم ؟

فاستنكرت السؤال لأول وهلة . ثم شرح السائل لي أحوال الطلبة في أمريكا وأنهم كلهم يعملون ويكسبون . فلما فهمت موقفه ، أخبرته بأن مثل هذه الحال لا يمكن أن توجد في القاهرة لأن أجور العمال عندنا منخفضة جداً

وخرجت من الفندق ، وأنا أحس أني قد انتفعت كثيراً ، وقد فهمت أشياء جديدة عن التعليم الجامعي في أمريكا . فانه ليس تعليماً . إذ هو تربية

* * *

وكثيراً ما أقارن بين طالب جامعي في مصر يعطي بعض الدروس لتلاميذ المدارس الابتدائية أو الثانوية ويكسب منها مقداراً من المال ينتفع به في عيشه وتعلمه ، وبين آخر لا يفعل هذا . فأجد عند المقارنة أن الأول قد حذق شيئاً من العادات الاجتماعية التي لا يعرفها أو لا يحسنها الثاني ، كما أنه قد تكونت له شخصية لم تتكون للثاني

وأحياناً أجد مثل هذه الحال في طالب جامعي قد التحق باحدى الصحف ، فانه قد يكسب منها قليلا من المال . ولكنه يكسب كثيراً في تكوين شخصيته وتعيين هدفه وتربية ضميره ، هذا الضمير الذي يجب أن نربيه على احترام العمل والخدمة قبل احترام الدرس والشهادة

وأحياناً يخطر في بالي ، لهذا السبب أن اقترح على وزارة المعارف أن تمنع التحاق الطلبة بالجامعة عقب حصولهم على الشهادة التوجيهية

إلا بعد أن يقضوا سنة في الخدمة ، أية خدمة . وذلك كي نغرس فيهم الاحساس بأن الولاء للشرف والوطنية والانسانية يقتضي الخدمة والانتاج ، والدراسة ليست ترفاً أو متعة ، وانما هي تأهيل للخدمة والإنتاج .

وهذه السنة التي أقترحها للعمل ، تربي ضميرهم وتعوضهم من تلك الفرصة الأمريكية التي تتيح للطالب أن يدرس ويعمل في وقت معاً ، أي يتعلم ويتربى في وقت معاً

أجل ، علينا أن نعلم الطلبة طرازاً جديداً من صلاح النفس بأن نقول لهم : يجب أن تحسوا عندما تموتون بعد العمر الطويل ، أنكم قد أنتجتم لأمتكم أكثر مما استهلكتم . وأن الأمة أثرت بحياتكم ثراء مادياً أو روحياً، وأنها صارت بحياتكم أفضل مما كانت قبل ميلادكم

يجب أن تعرفوا أن الرجل الصالح ليس هو ذلك الذي يصلي في الليل والنهار ويقنع بذلك . وليس هو ذلك المجامل الذي يسير خلف الجنازات ، وليس هو ذلك المحسن على الفقراء . بل ليس هو ذلك الأب الذي يقنع بحب زوجته وتربية ابنائه . لا ، إنما هو قبل كل شيء ذلك الذي يعطي المجتمع أكثر مما يأخذ منه ، أي ينتج أكثر مما يستهلك

والمرأة الصالحة ليست هي ربة البيت فقط ، وليست هي الأم فقط . وليست هي التي تعني بزوجها وابنائها فقط . وانما هي تلك التي تعلمت حرفة وأحسنت عملاً اجتماعياً ، وعملت وكسبت ، وأصابت وأخطأت . ثم أنتجت أكثر مما استهلكت حتى أثرى المجتمع بحياتها . ومع ذلك لا تنسى أن ولادة الأبناء انتاج عظيم . ويكون هذا

الإنتاج أعظم إذا كان هؤلاء الأبناء على صحة في الجسم وسلامة في النفس موروثين من الأبوين ، ثم على تربية قد اكتسبوها عن القدوة بأبويهم ومن العيش في عائلة متمدنة وبيت حر

★ ★ ★

أسوأ الناس هو ذلك الكاتب أو المؤلف الذي يكب على الورق والحبر والقلم لا يعرف غيرها . فانه شخصية انسانية هزيلة . أكاد أحس وأنا أتخيله أو أتأمله أن الذي يجري في عروقه ليس دماً أحمر حياً تمرح فيه الخلايا الحمر ، وانما هو حبر أسود ميت مر عفص

ذلك أننا يجب أن نكتب كي نحيا ، ونحيا كي نكتب . واذن يجب ان نختلط بالمجتمع ، نشتغل بالسياسة العالمية ونكافح من أجل المبادىء الاجتماعية . ونحب جمال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقل ونقتني الكلب والجواد ، ونعانق الطبيعة في السر الحميم على خلوة بها في حلكة الليل ، نتأمل نجومها ، ونحاول اقتحام غيبياتها كما نختلي إلى شجرة التوت المنعزلة في النهار . نقعد تحت قبة من أوراقها الخضراء نتأمل ونفكر الافكار الخضراء

كما نحب الأدب والفن ونبحث العلوم والفلسفات والأديان ونقف متلبثين عند وصف التوراة للخمر على لسان يعقوب بأنها « دماء الأعناب » أو قول دستويفسكي بأنه يؤثر أن يكون مع المسيح على أن يكون مع الحق

★ ★ ★

ويجب أن نشتغل بالسوق والبورصة والمصنع والمزرعة ، نسأل عن نظمها وأجور العمال فيها ومساكنهم وثقافتهم ، لأن هذه الشئون جميعها هي المجتمع الذي نعيش فيه والذي لا يجوز لنا أن نكتب شيئاً عنه ما لم نكن قد درسناه واختبرناه

بل كذلك يجب أن نسيح في الأقطار الأخرى كي نرى ونقارن بين عاداتنا ونظمنا وبين عادات الشعوب الأخرى ونظمها حتى تتكون لنا من ذلك بصيرة مضيئة ترشدنا إلى فضائلنا فنستمسك بها ، أو تعين لنا رذائلنا فنكف عنها

وهذه الدراسة لشئون المجتمع ، وهذه السياحات في الأقطار الأجنبية ، هي بمثابة التدريب العملي الذي يجده الطالب الأمريكي مدة تعلمه في الجامعة . تدريب للكاتب والأديب كي يحسنا الكتابة عن المجتمع ، الذي يجب أن يكون على الدوام موضوع الأدب أو الصحافة

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

نحن نعيش في المجتمع المتمدن بدستور أخلاقي نأخذه كله أو ٩٩ في المئة منه من العائلة التي نشأنا فيها والشارع الذي مارسنا فيه اختبارات الطفولة ، ومن زملاء المدرسة والحرفة ، ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم . ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التي يعينها لنا

وكثيراً ما نأخذ بقيم وأوزان فاسدة لأن المجتمع الذي نعيش فيه فاسد وكثيرا ما يخفى علينا هذا الفساد فنندفع في التيار لا نقف ولا نتردد . ولكن أحياناً نقف ونتردد . وعندئذ يكون التقلقل والبحث والتجديد المربون . ثم تكون قيم وأوزان جديدة

والقيم والأوزان اما ان تكون اجتماعية واما أن تكون بشرية . وإذا كان المجتمع راقياً كانت كل أو معظم أوزانه بشرية . ومثال الأوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل والتعصب ، وصيانة

الصحة ومكافحة المرض ، وتنوير الذهن بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذ ولا اثراء مبطر . ومثال الأوزان والقيم الاجتماعية التزين واقتناء القصور والضياع والجواهر والتفاخر بالولائم وأبهة العرس أو المآتم والألقاب ونحو ذلك

وكي نزيد الإيضاح نفرض أن صديقنا مات وترك زوجته وجملة أولاد . فالرجل الذي تغلب عليه الأوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المأتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزي أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قد انجز جميع واجباته . وربما قد يبالغ في هذه الواجبات فينعاه في الجرائد . ولكن الرجل الذي تغلب عليه الأوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الأرملة وأولادها . فإذا وجد أنهم في حاجة إلى المال تبرع من جيبه وجمع من غيره ما يقيتها . ثم هو يرعى الأولاد بالنصيحة ويهيىء لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التي فقدتها بموت العائل

ومن هنا نعرف أن الضمير الحسن هو الضمير البشري وليس هو الضمير الاجتماعي

ومن هذا المثال الذي ذكرنا ، نستطيع أن نتوسع فنقول :

أن للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن للمال ، بعد أن يتجاوز حداً ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذي ينشد في الفتاة جمالها انما ينشد قيمة بشرية ولكنه عندما ينشد ثراءها انما ينشد قيمة اجتماعية . ومن هنا أيضا نقول أن للزواج قيمة بشرية ، ولكن أبهة العرس وجهاز العروس ومكانة أبيها ونحو ذلك تعد من القيم الاجتماعية

وكثيراً ما تستهلك القيم والأوزان الاجتماعية مجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع في جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخمسين أو الستين لأن المجهود في هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفي الوقت نفسه ربما حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية . وكثير من الناس يغمرهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك نجد أن كل اهتمامهم ينحصر في شراء سيارة من الطراز الجديد ، أو يغمرهم الهم والنكد لأنهم فقدوا صفقة تجارية . مع أن زيادة ألف جنيه أو نقصها في حساب البنك لن يضيرهم ولن يزيد سعادتهم أو ينقصها

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية في التفوق في حرفته . ثم يفشل في عائلته أو مجتمعه ولا يدري أن النجاح كان يجب أن يكون كلياً يشمل الأسرة والمجتمع والحرفة والفراغ . وكثير من الأمراض النفسية الفاشية في أيامنا تعزى إلى الاندفاع في هذه القيم الاجتماعية دون التفكير في القيم البشرية . وذلك « الرجل الأجوف » الذي تحدث عنه الشاعر اليوت انما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه فنسي كلمة الامبراطور ماركوس أوريليوس حين قال : أن أعظم ما يشتاق إليه ويتمناه في هذه الدنيا ، كسرة من الخبز مع قطعة من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة

. والمحك الذي يفصل بين القيمتين والوزنين ان نسأل ، عندما نسأل عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم ، مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

وحين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ما عنده ؟

فنجيب بأن عنده منزلاً به أثاث فاخر أو عنده ضيعة وسيارة وعشرة آلاف جنيه في البنك ولقب بك الخ

والحياة الفنية تقتضينا التمييز بين القيم ، وان نجعل للقيمة البشرية المكانة الأولى في جميع اعتباراتنا ، سواء في أنفسنا أم في غيرنا . والرجل الطيب هو في النهاية الرجل البشري وليس هو الرجل الاجتماعي . أي هو الرجل الذي يتعمق ويصل إلى الجذور

وعندما نتأمل الأنبياء بل كذلك الفلاسفة والأدباء ، نجد أن كل اهتمامهم كان منصرفاً إلى تغيير المجتمع بوضع القيم البشرية مكان القيم الاجتماعية

الاستغناء ام الاقتناء

نحن نعيش في مجتمع « اقتنائي » ننشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لي وهذا لك . وعلى أن أحدنا يسر بأن يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فنزداد رغبة فى الاقتناء واندفاعاً نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن في تعب ، لأننا لم نقتن كما اقتنى فلان الذي كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا في مباراة نرقبهم حين تخرج احدى بناتهم في ثوب زاه ، أو حين نقرأ في الصحف عن الترقيات والعلاوات ، فتمتلىء حسداً لأن هذا الشخص الذي كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الأقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا

ونحن ننشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا في حاجة إلى زيادة ولكن لأن المجتمع « الاقتنائي » الذي نعيش فيه قد غرس فينا هذه العواطف ، فأكسبنا هموماً شخصية تنزع بنا إلى الجهد وتحمل المتاعب كي نتفوق في الجمع ونستمر في الزيادة . ونبقى على ذلك

طوال حياتنا ، حتى أننا نرى ناساً قد تقدمت بهم السن وأثقلتهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم في هموم دائمة وحسابات لا تنقطع ، حتى ليتساءل الانسان وهم في هذه الحال : هل هم يملكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هي التي تملكهم ؟

وأعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء ، أن هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كي يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التي لا تترك له فراغا

وقد أصبحت اعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى اننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب في تغيير الجو من الحر إلى البرودة ، بل لأننا نحب أن نفر من هذه الأعباء . فالتغيير هنا نفسي وليس مناخيا . وعندما نتأمل المصطافين في رأس البر أو الاسكندرية ، نجد أنهم ينطلقون من القيود ويحاولون أن يتصلوا بالطبيعة في بساطة من التكاليف والأعباء تشهد على أنهم كانوا متعبين بما كانوا يقتنون من ملابس غالية مرهقة في المدن .

والحق أننا عندما نتأمل معيشتنا في وسط متمدن ، وما يجلبه علينا هذا الوسط من تكاليف ، وما يطالبنا به من مطامع ، نجد أننا جميعا في حال سيئة من القلق النفسي ، مسوقين باوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين . وهذه الأوهام هي في نهايتها مصطلحات أي عادات ليست لها قيمة بشرية ، وهي لا تزيدنا الا أعباء وهموما إذ نستطيع أن نستغنى عنها . فقد استغني شبابنا مدة الحرب الأخيرة مثلا عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة عندما تخلصوا من هذا

التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات أيضا ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن الا بالراحة والزيادة في الصحة بهذا الاستغناء . أجل ... ازداد الجميع صحة لأن الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد في تعرض الأعضاء لأشعة الشمس ولأثرها الصحي في تنبيه الجسم

واعود فأقول أن معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ، بل أحياناً مجهودات مضنية مميتة ، في الاندفاع نحو الاقتناء انما هو مصطلحات وعادات اجتماعية لا أكثر ، أي ليس لها في نفوسنا حاجة طبيعية . فحاجاتنا الطبيعية قليلة جدا . وقد قنع غاندي مثلا بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أو أربعة في العام كله . فقد كان يكتفي من اللباس بقطعة من القماش غير مخطية يتلفع بها ، بينما يحتاج أصغرنا إلى عشر قطع كي يغطي بها جسمه كأنها ضمادات الجريح ، أو كأنها خرق ملونة لمهرج على مسرح !

وإذا كنا نحن نستبعد أو نستغرب معيشة غاندي ، فليس ذلك لأن غاندي مخطيء ، بل لأننا نعيش في أسر مصطلحات وعادات اجتماعية قد تغلغلت في نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف

والرجل الحكيم هو الذي يعرف كيف يستغني دون أن تنقص حاجاته الضرورية . ومن هنا قيمة الدعوة إلى الحياة البسيطة ، أي إلى بساطة العيش . وهذه الدعوة هي نداء قديم يتردد صداه عبر التاريخ منذ آلاف السنين . وكلنا نذكر « ديوجينيس » الاغريقي حين وصف الاسكندر بأنه كان شقياً بما جلب على نفسه حين سأله عما يستطيع أن يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل ما يطلبه انما هو

أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه . ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديوجينيس كان على حق ؟ وكان سعيداً ببرميله الذي كان ينام فيه ، في حين كان الاسكندر شقياً بما جلب على نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعمد الاسكندر إلى الانتحار وهو في الثلاثين ؟ فأي شقاء أكبر من هذا ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء إلى الفتح والحرب . وكان ديوجينيس يندفع بروح الاستغناء إلى العيش في برميل . وكلاهما مسرف . ولكن إسراف ديوجينيس أقرب إلى الحكمة من إسراف الإسكندر

وغاندي في عصرنا يجري على مذهب الفيلسوف الاغريقي ويجحد مذهب الفاتح المقدوني ، وهو حكيم في هذا السلوك

وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بعبء التكاليف المرهقة التي تفرضها علينا الحضارة . برغم أن حضارة العصر الذي كان يعيش فيه ، هي البساطة والسذاجة بالمقارنة إلى ما نعيش نحن فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة . ولكن مدينته ، حوالي سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة إلى المدن التي نعيش فيها الآن . فلم يكن في مدينته ترام أو سيارة أو راديو ، ولم تكن مضار المباراة وما تجلبه من حسد وهزيمة وقلق جزءاً من مائة مما يكابد أبناء المدن في هذه الأيام ، وقد ترك بعده «ثورو» الأمريكي المدينة الأميركية وعاش في الغابة . وترك أدوار كاربنتر المدينة الانجليزية وعاش في الريف . وفعل كذلك تولستوي وغاندي

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة نجد أن الحكمة كانت في جانبهم والجنون أو الحماقة في جانبنا

فقد عاشوا بالاستغناء ، في حين نعيش نحن بالاقتناء . وامتازوا بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من الواجبات والأثقال التي ننوء بها ونزعم أننا بفضلها سعداء ، مع أن الحقيقة أننا مسخرون في الجمع والاقتناء ، ثم في زيادة الجمع والاقتناء . وسنظل على هذا حتى نموت بالنقطة أو السكتة مجهودين مرهقين

وأسوأ ما في هذه الحياة التي نعيشها ونحن نعدو وراء المطامع وكأننا نجري في سباق ، أننا لا نعرف ماذا نقتني ولمن نقتني ؟ ثم هذا العدو في هذا السباق لا يتيح لنا فرصة الوقوف كي نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين ، فلا يلتمع لنا ذكاء ولا يتردد في رؤوسنا خاطر ولا نتساءل : لماذا كل هذا ؟

نعيش لنحسب أم نعيش لنحيا

غاية الحياة هي الحياة . وليست غايتها أن نكون أثرياء أو أصحاء أو علماء أو سعداء . لأننا إذا كنا نطلب الثراء أو الصحة أو العلم أو السعادة فأنما لأن كل واحد من هذه الأشياء يؤدي في النهاية إلى الحياة المثلى التي نتمناها

فيجب لهذا السبب الا نخطىء الهدف . وهو أن نحيا لأجل الحياة . وإذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فاننا لن ننحرف . إذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم انحرافاتنا

وأعظم ما نقع فيه من انحراف بل اعوجاج هو أن المجتمع يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على أن ننسى أن هدف الحياة هو الحياة . حتى أننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، أي كلنا ، ننتهي إلى عادات فكرية ونفسية لو أنها امتحنت في نزاهة وذكاء لكانت أقرب إلى الجنون والشذوذ منها إلى التعقل السوي

وأسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هي ان نحيل الحياة إلى حساب . ذلك أن أحدنا ينسى أنه يجب أن يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعاً ومعرفة وحكمة . ينسى كل هذا ثم يرصد وقته وجهده في الحساب . ما هي زيادة دخله هذا العام على دخله في العام السابق ؟ وماذا يستطيع أن يشتري بما أدخر مما يزيد هذا الدخل ؟ الخ

وأحياناً تستحيل هذه العادة إلى جنون . فلا يشتغل الرأس إلا بها ولا يتحرك النشاط إلا لأجلها . حتى أننا لنرثي لصاحبها إذ نجد أنه أسير قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام أو الشراب أو التنزه أو الاجتماع بالاصدقاء . وقد يسأل أحدنا عندما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى كثيراً ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر في الشراب أو النساء : أيهما أفضل ؟

وليس هذا السؤال لأن الاستهتار حسن . ولكن لأن قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان في الاقتناء أسوأ من أي استهتار . لأن أقل ما يقال في المقارنة هنا أن المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف في الاستمتاع إلى حد الضرر . ولكن هذا الحاسب لا يستمتع بتاتاً إلا كما يستمتع النيوروزي أي المريض النفسي بعادة تملكته واستبدت به وهي بعيدة عن العقل بل متمردة عليه

ونحن في عصرنا الحاضر نحتاج إلى كاتب مثل د . هـ . لورنس كي يبين لنا أن واجبنا الأول في الدنيا هو أن نعيش . فقد ألف هذا الكاتب قصة « عاشق الليدي شاترلي » واسرف في دعوته إلى الاستمتاع الجنسي باعتبار أنه أهم من الاعتبارات الاجتماعية التي تنكر

علينا ملذاتنا وتشغلنا بألوان أخرى من النشاط الذي ننحرف ونزيغ به عن هدف الحياة وهو أن نحيا ونستمتع . وليس شك أنه أسرف بل أنه وقع فيما أراد أن يحذرنا منه . إذ هو جعل الاستهتار الجنسي هدفاً ، وكأنه اعتقد أن اللذة الجنسية هي كل ما في الحياة . وهذا خطأ فاضح

وصحيح أن الاستهتار الجنسي ، في القيم والأوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر في الحساب لاقتناء المال وزيادته ، ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم أن اللذة الجنسية جزء من الحياة وليست الحياة جزءا من اللذة الجنسية . فإذا نحن تحرينا الحياة المثلى فاننا بلا شك لا نهمل الملذات الجنسية ولكننا أيضا نضع هذه الملذات في مكانها فلا تتجاوزه وتطغى على حياتنا كلها . إذ أن هناك ملذات أخرى تحتاج إليها الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء والحكمة .

وإسراف لورنس في الإكبار من شأن اللذة الجنسية انما هو مبالغة يرمي بها إلى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة في اندفاع الناس إلى جمع المال وقضاء العمر في الحساب . حتى أننا لنجد رجلا في الستين أو في السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجعها ، والاهتمام بدخله والتفكير في شراء عقار جديد ، أو نحو ذلك . مع أن كل ما بقي له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين هو أحوج فيهما إلى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل أن يغادر هذه الدنيا

عرفت سيدة كانت طريحة الفراش يعزف قلبها دقات الموت قبل وقوعه بخمسة أيام . ومع ذلك كانت تتقلب في قلق لأن حساب

المهندس الذي وكلت إليه بناء منزل لها لم يطابق حسابها . وبدلا من أن تودع الدنيا في تأمل وفلسفة كانت لذلك تودعها في حساب القرش والمليم

ووطأة المجتمع علينا هي التي تسوقنا إلى أن نستبدل الحساب بالحياة . وإلى أن نسخر أنفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ في نفوسنا بحيث نعيش في هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جراداً ننشط نشاطاً غريزياً لا نعرف غايته

والرجل الذى ارتفع إلى أن صار يجعل من حياته فنا يجب من وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم المجتمع وأوزانه قد غمرتني وسخرتني حتى صرت آلة جمع وطرح للحساب ، أي لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهي أن نعيش كالأطفال ، أي أن ننزل على القيم البشرية الساذجة ، كحب الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل . وهو الذي أخبرنا بان زهور الحقول أجمل مما اقتناه قصر سليمان الحكيم

العمل والفراغ

كي يكون نجاحنا في الحياة كلياً شاملاً وليس جزئياً خاصاً يجب أن نواجه ونحل أربع مشكلات أصلية هي :

١ ــ مشكلة العمل الذي نرتزق به

٢ ــ مشكلة الفراغ الذي نقضيه مختارين

٣ ــ مشكلة الزواج والعائلة والأولاد

٤ ــ مشكلة المجتمع الذي نعيش فيه وتنظيم علاقاتنا المختلفة به

والإهمال في واحدة من هذه المشكلات يتعسنا ويجعلنا في خصومة دائمة إما مع غيرنا واما مع أنفسنا بحيث نعيش في غير يسر ، كأننا نكافح تياراً بلا هدف يقتضي المكافحة . والقارىء لهذا الكتاب يعرف أننا نعزف لحناً يتكرر : هو أن النجاح يجب ألا يقتصر على ناحية أو جملة نواح من الحياة وانما يجب أن يكون قبل كل شيء نجاحاً في الحياة كلها

ومشكلة العمل الذي نرتزق به تبرز في عصرنا بروزا واضحا لأن العلم لم يستخدم في الانتاج إلى الحد الذي تتوافر فيه حاجات الناس ، ولو استخدم لانتقلت بؤرة الاهتمام من الارتزاق بالعمل إلى الانتفاع بالفراغ ، بل كذلك كانت بؤرة الاهتمام في المدارس والجامعات تنتقل هذا الانتقال

وإلى أن نصل إلى هذه الحال التي نرجوها يجب أن نجعل الاهتمام بالعمل الارتزاقي في مقدمة شئوننا التي نتدرب لها ونثابر على تفهم تفاصيلها . وأعظم ما يجب أن نهتم به هنا هو اختيار العمل بحيث يلائم ميولنا وكفاءتنا معا ، لأن معظم التعس الذي يعانيه الناس من أعمالهم يعود إلى أنهم لم يختاروها بل قضت المصادفات والظروف بأن « يقعوا » فيها ، واجبرتهم حاجات العيش على ممارستها كارهين أو متبرمين . وهذه الحال تجعلهم يتبرمون بالحياة كلها أي يكرهون المنزل والنادي والأصدقاء والكتب لأنهم يكرهون أعمالهم ، كأن حياتهم قد غشيت بغشاء من التبرم والسخط

وعلى هذا نقول أن اختيار العمل الملائم الذي نحبه ونستطيعه هو نصف الانتصار في معركة الارتزاق بل ربما أكثر ، لأننا بعد ذلك ننشط إلى الحذق والمثابرة والدرس . ونحن في العادة لا نشرع في الاختيار قبل السادسة عشرة من العمر ، ولذلك نحتاج قبل ذلك إلى الارشاد لأننا نجهل ميولنا وكفاءاتنا ونحتاج إلى من يحللها ويخبرنا عن حقيقتها

وكثير من التغلب الذي يصيب الموظف يعود إلى كراهته لعمله أنه أساء في اختياره . فهو يتهاون ويتثاءب ويكره رئيسه أو يعتقد أنه

يرهقه بالواجبات ، بل أحياناً يحس صداعاً بسبب هذه الكراهة ، وهو يتعلل بهذا الصداع لطلب الاجازات أو للزيادة في التهاون والتكاسل إلى أن تسوء العلاقات بينه وبين رؤسائه

وعلاج هذه الحال ، إذا كانت الوقاية لم تتخذ من قبل ، هو استخدام الفراغ بحيث يعوض من سأم العمل . وذلك بأن نمارس هواية ما تشغلنا وتعوضنا من النفور من العمل وتعيد الينا اتزاننا . ويجب لهذا السبب أن يكون لكل منا هواية بل هوايات تتوافر بها اهتماماتنا . وعندي أن أعظم هذه الهوايات هو القراءة وتعود الدرس ، لأنها هي الهواية الباقية إلى سن الشيخوخة . وهي في ظاهرها هواية واحدة ولكنها في صميمها جملة هوايات ، لأن الذي يعشق الدراسة يجد نفسه مشغولا بألوان مختلفة من الاهتمامات . يقرأ الجريدة والمجلة ويناقش السياسة وقد يكافح لمذهب فيها . كما يقرأ الكتب ويقتنيها ويضع المشروعات لدراسات جديدة فيتجدد بذلك شباب ذهنه وتتسع آفاقه العملية والأدبية . ومثل هذا الشخص لن يسأم فراغه ولن يقضيه ذاهلا في غيبوبة نفسية على كراسي المقاهي ، ولن يقع في العادات السيئة كالتهالك على التدخين أو الشراب

والرجل الموفق هو الذي يجعل هوايته مرتزقه . ولكن يجب أن نعترف أن هؤلاء قليلون في مجتمعنا . حتى الأديب الذي يرتزق بقلمه لا يكتب على الدوام ما يهوى . لأن الضغط الاقتصادي يحمله في كثير من الأحيان على ألوان من الانتاج الكمي ، لا الكيفي ، يهدف منه إلى الكسب لا إلى الفن

ولهذا نحتاج جميعنا إلى أن يمارس كل منا هواية ما يحل بها مشكلة الفراغ ، ومتى حللنا هذه المشكلة فان العمل الارتزاقي يسهل علينا فلا يكون ذلك المضض الذي نراه في كثير من الموظفين وهم إلى مكاتبهم يتجهمون لأوراقهم ورؤسائهم

العائلة والمجتمع

النجاح العائلي أكبر من النجاح الحرفي . ويجب أن يكون كذلك لأن القيم العائلية بشرية في حين أن القيم الحرفية اجتماعية . والعائلة هي زوجة وأولاد وبيت . والرجل الذي وفق إلى اختيار زوجته واستمتع بحبه لها وعنايتها به وأعقب أولاداً وتعب لهم حتى نموا واينعوا أمام عينيه ، مثل هذا الرجل قد حظي بنصيب عظيم من متع الحياة

واختيار الزوجة هو ، مثل اختيار العمل ، نصف المعركة . لأننا إذا لم نحسن الاختيار تعرضنا لألوان من التعس كنا نستطيع تجنبها . وأعظم ما يتيح لنا الاختيار الحسن أن نطيل مدة الخطبة حتى نعرف بالاختلاط شخصية الفتاة التي سنتزوجها . وواضح أن الخطيبين يحرصان مدة الخطبة على أن يظهر كل منهما للآخر بأحسن مظاهره . ولكن حتى مع هذا الحرص يستطيع كل منهما أن يفطن إلى الاتجاهات والميول في الآخر

وقد يكون قضاء شهر في أحد المصايف خبر فرصة يتعرف فيها الخطيب إلى خطيبته لما في الاصطياف من التبذل ورفع التكاليف التي تستر وتخفي حقائق الشخصية

ويجب أن يتجنب كل منهما اغراء الفتنة . فقد يفتتن الشاب بنغمة الصوت أو زرقة العينين أو تورد الوجنتين في خطيبته . ثم ينخدع بهذه الصفات في الاختيار السيىء . وخير ما يكفل الاختيار الحسن أن يسأل الشاب نفسه : كيف نكون معاً ، أنا وهذه الفتاة ، في بيت وحدنا بعد خمس سنوات ثم بعد عشر سنوات ؟ كيف نتحدث وكيف يعاشر أحدنا الآخر وكيف يكون أولادنا معنا ؟

وخير للخطيب أن يختار خطيبته في تعقل ودراية من أن ينزلق في شهوة الاغراء الجنسي ، والحب الضعيف مع الأمل في نموه في المستقبل يفضل الحب العظيم الذي لن ينمو . ويجب هنا الا ننسى أن الحب هو غير الافتتان . الأول تعقلي .والثاني غريزي . بل هما أحيانا متناقضان حيث إذا زاد حنان الحب ضعف عدوان الشهوة

ويجب أن يكون للقيم والأوزان البشرية التفضيل على القيم والأوزان الاجتماعية في اختيار الزوجة . فالجمال والصحة والذكاء قيم بشرية ويجب أن تفضل لذلك على الثراء والمكانة والثقافة لأن هذه قيم اجتماعية . ولكن من الحسن الا يختار الشاب فتاة من غير طبقته الاجتماعية أو دون ثقافته . لأن التفاوت هنا يعني تفاوتا في الأذواق والعادات والاتجاهات . وإذا كان الاختلاف صغيراً فإن النتائج لن تكون خطيرة . ولكنها تفدح إذا كان الاختلاف كبيرا . وفي بلادنا ، حيث تتجه العناية إلى تربية الشبان دون الفتيات في أغلب الحالات ،

نجد هذا الاختلاف واضحا . ولذلك لابد من التسامح ولكن مع النصح للزوج بأن يعنى بتربية زوجته وتنبيهها إلى ترقية شخصيتها وزيادة ثقافتها

والتوفيق بين الزوجين لا يتأتى مع الحماة أو الحمى من أية الناحيتين ولذلك يجب أن يعيش الزوجان مستقلين في بيت منفصل عن الآباء والأمهات . فإذا لم يكن هذا ممكنا للظروف الاقتصادية مثلا ، فيجب على الأقل أن تعرف هذه الحقيقة وان يؤسس البيت مع اعتبار هذه « الضرورة » التي تواجه كما لو كانت صعوبة قهرية لا مفر منها . وبهذا الاعتبار يمكن أن تواجه المواجهة السليمة وان توزن الوزن الصحيح

وكل ما قلناه عن الشاب ينطبق أيضاً على الفتاة

ويجب على الزوجين أن يجعلا من البيت متحفاً وليس مأوى فقط . فإذا جاء الأولاد صار معهداً حراً للجميع آباء وأولاداً فلا سيد ولا مسود . ويجب أن تقتنى التحف الفاخرة وتهيأ الغرف بأغلى الأثاث حتى يجذب البيت الزوج ويصير مرتكز نشاطه واهتمامه . كما يجب أن يكون البيت مضيفة راقية يجد فيه الزائرون متعاً مختلفة من الرسوم الفنية والموسيقا العالية إلى السمر المنير والمناقشة المربية

والنجاح في المجتمع يأتي بعد النجاح في العائلة وهو يحتاج إلى أن ندرس المجتمع بتتبع السياسة العامة ، عالمية وقطرية ، وإلى أن نطابق بين مصالحنا ومصالحه حتى لا يكون تنافر. ، هذا التنافر الذي يبلغ القمة عند المجرمين ، لان المجرم يتصرف وهو على غير وفاق مع المجتمع ويصل إلى غايته وهو على تنافر مع الأساليب الاجتماعية

والنجاح الاجتماعي يقتضي العناية بالأصدقاء ورعايتهم وتجنب التفريط في صداقتهم . وقد يكون الاهتداء إلى صديق وملازمته امتع متعة في الحياة

والمجتمع يحتاج إلى المزاج الانبساطى ، أي مزاج ذلك الشخص الذي يحب الاختلاط ويغشى الاندية والمطاعم والمسارح والمصايف ويميل إلى الزيارات .

وصاحب المزاج الانطوائي ينفر من هذه الانبساطية ؛ ولكن عليه أن يتمرن على ممارستها إلى حد ما . كما يجب على صاحب المزاج الانبساطي أن يتمرن على ممارسة الخلوة والقراءة والدراسة والتفكير إلى حد ما

والخلاصة أنه يجب على كل شاب أو شابة أن يسأل نفسه : هل أنا نجحت في حل هذه المشكلات الأربع : الحرفة والفراغ والعائلة والمجتمع ؟ وإلى أي حد بلغ نجاحي ؟

الحياة والحب

فرق ما بين الشاب قد دخل الحب في حياته ففرح وطرب باللقاء كما لهث وتعب بالحرمان ، وبين الرجل اغلق على قلبه فلم يعرف لذة اللقاء ولا لوعة الحرمان . أجل . أنه فرق ما بين الحياة والموت ، ما بين النشاط المنعش والركود الآسن

والحب هو شهوة الجسم ، كما هو تعقل النفس . وهو ما دام على مستوى الشهوة ، يتركنا في ذهول حيواني . أما حين يخرج من الشهوة إلى التعقل .. إلى احساس النفس ، فاننا نجد فيه المعاني العميقة والآفاق الواسعة

اعتبر مثلاً هذه الظاهرة . فاننا عندما نشتهي المرأة نأخذ منها ونستخدمها . أما حين نحبها فإننا نعطيها ونخدمها

ويجب لذلك ان نتسامى بالشهوة إلى الحب . وليس معنى هذا التسامي ان ننسى الشهوة ، ولكن أن ننقلهما من الذهول الحيواني إلى التعقل البشري ، من الأخذ والانتهاب إلى الاعطاء والسخاء

والحب عند اللقاء سعادة سامية . ثم هو عند الحرمان لوعة وخلوة وتأمل

بل أن الحب ، على ما نجد فيه من طرب في اللقاء ، قد يكون أسمى وقت الحرمان . لأننا في اللقاء نجد ذبذبة الجسم فقط . أما وقت الحرمان فاننا نجد الذكرى والخيال ، فنحيا في طرب الذبذبة النفسية . وعندئذ يكون الشعر والفن ، بل تكون الحكمة

والعلاقة بين الحب والفن، بين الغرام والشعر،أكبر مما نظن، بل أنها لتكاد تكون مطابقة إذ نجد فيها جميعا غلواً وحماسة واهتياجاً . ولم يكن لذلك عفواً ان يغدو الحب موضوع الأدب والشعر عند جميع الأمم المتمدنة بل الأمم البدائية أيضاً . لأنها جميعاً ارتفاعات نفسية متشابهة . واشعار الحب تجري على ألسنة العامة كما لو كانت أشعار المجد ، كما أن الرسوم التاريخية تتناول قصص الحب ، في قداسة الاحساس الفني ، كما تتناول قصص الدين أو الابطال من القواد والعظماء

ونحن نعرف من كلمة التضحية أنها وصف الأبطال ، ولكننا ننسى أن أعظم المضحين هم المحبون . وكثيرا ما نقرأ في الصحف عن حوادث البطولة عند أفراد من العامة وقت الحب . فإن كلا من المحبين قد يضحي بنفسه للآخر . وهو انما يرتفع إلى هذا الاحساس النبيل لأن غلواء الحب ، مثل غلواء الفن ، تحرك خياله وتستنهض شرفه ونبله حتى تحيله من شاب عادي يحترف التجارة أو البقالة إلى بطل

وليس الحب مع ذلك حقاً لكل انسان . لا . انما هو المكافأة التي يستحقها الانسان الصالح للبقاء . وذلك عندما تكون فيه ميزات في الجسم والعقل تجذب إليه الجنس الآخر في اعجاب واشتهاء . والاعجاب والاشتهاء هنا هي صوت الطبيعة للبقاء ، تعبر عنهما المرأة بالرضا والانجذاب

ولذلك يجب على كل انسان ، قد خاب في حبه ، أن يسأل عن الأسباب لهذه الخيبة . إذ هي خيبة الحياة التي قد ترجع إلى نقص في كفاءته الفطرية والاجتماعية . كما أن من حق كل انسان أن تتاح له الفرصة بأن يسعى ليسعد بالحب ، وأن يعثر في أرجاء دنياه وحياته على هذا الشخص الآخر الذي ينتظره لإتمام سعادته

ويجب أن يسبق الحب الذي يسمو على الشهوة ، الزواج . وصحيح أن هناك حباً ينشأ بعد الزواج حين لا تكون الفرص قد توافرت للاختيار قبل الزواج . ولكن هذا نادر لا يضمن . ولذلك من حق كل شاب وفتاة الا يقدم أحدهما على الزواج الا بعد الاحساس الصحيح بأن هذا الشخص الآخر المنتظر جدير بالإعجاب والحب

الجمال والحب والفن

في مثل هذا الشهر من العام الماضي كنت في باريس ، وكنت في مقهى اتصفح جريدة الصباح ، وقعدت إلى جواري سيدة فرنسية ومعها ابنها وكان صبياً في نحو العاشرة . وما هو أن استقرت حتى أخرجت بضعة فرنكات وأرسلته كي يشتري وردة

وعاد الصبي بعد دقائق ومعه وردة زاهية . وتأملتها السيدة كأنها تستمتع بزهوتها . ثم أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ووضعت الوردة على شعرها

وتأملتها أنا في إعجاب . فقد جللت الوردة سحنتها بنور من الحياة ، وتألق وجهها جمالاً واكتست العينان فتنة والوجنتان حمرة

وعدت إلى نفسي أتأمل وأفكر في هذا التأنق الذي يتسم به الباريسيون رجالاً ونساء . وهو تأنق يشمل كل شيء ، فهو في الهندام كما هو على المائدة . بل كما هو في اللغة والإيماءة . وهو في المدينة ، ميادينها وشوارعها كما هو في البيت

أنهم يتسامون إلى الجمال في كل ما دق وجلّ

وليس في الدنيا مدينة أحفل بالتماثيل العظيمة من باريس . وهي تماثيل تخلد ذكرى العظماء أحياناً . ولكنها تمثل أحياناً الفكرة أو الإرادة أو الأمل أو العظمة . هي أفكار تعبر عنها الأحجار

وليس في الدنيا بيت يجمع بين الفن والخدمة ، بين التأنق والضرورة ، كما يجمع هذا البيت الفرنسي الذي تعني ربته بالزهر يوضع على المائدة كما تعنى باناء الحساء المزخرف .

وأحياناً أتأمل جمال الفتاة الفرنسية وأحاول أن أحلل تفاصيله وأجزاءه . وكثيراً ما أنتهي إلى الاستنتاج بأنه ظرف واناقة أكثر منه جمالاً أو ملاحة . فهو أحياناً هندام أنيق كأن مهندساً قد رسمه بالألوان ، وهدف منه إلى اخراج فراشة زاهية تظن أنها لم تخلق الا لترشف الرحيق

ثم هذا التأنق ينتقل إلى اللغة ، فليس هناك استهتار في التعبير أو اهمال في اخراج الفكرة ، معينة مبينة ، لا يشوب معانيها غموض أو شك . وكثيراً ما رأيت محدثي يتعنى ويتعمل كي يعبر بالكلمة والجملة عما يعني في وضوح . والمثل الفرنسي يقول : « ما ليس واضحاً ليس فرنسياً » . ولم يؤلف هذا المثل عبثاً . وهذا الوضوح هو في النهاية تأنق

ولقد رأيت نساء ورجالاً فوق الستين في باريس . واقسم أني وجدت في وجوههم من روعة الجمال ما لعله يفوق جمال الشبان والفتيات . فإنهم يتخيرون ملابسهم في عناية . وتعنى المرأة بتصفيف

شعرها كما يعنى الرجل بقص لحيته . وكلاهما يبدو كما لو كان قد صاغ وجهه فنان عظيم

هذا التأنق هو فن جميل يجب أن نتعلمه ونمارسه ، وانما نمارسه بأن نكون أدباء وشعراء . والشاب في حبه للفتاة ، والفتاة في اعجابها بالشاب ، يجدان معاني الشعر والأدب ، كل منهما في الآخر . ولم تكن مصادفة أن يكون الحب ، عند جميع الأمم المتمدينة ، موضوع الأدب والفن . ولكنه لم يكن كذلك قصداً ، وانما يلتصق الحب بالفن أو ينبع الفن من الحب ، لأن الحماسة الجنسية ، عندما تحتبس تنتهي إلى منافذ من الحماسة الفنية بل أحياناً تنتهي إلى ألوان من الحماسة الروحية

فنحن نفهم الفن ونعلله في مجنون ليلى أو قيس لبنى . وهو واضح لا يحتاج إلى تفسير . لأن تأمل الجمال عندهما قد أحدث أنغاما فنية في النفس نطق بها المحب أشعاراً واستحال فناناً

ولكن يجب الا ننسى أن أعظم الرهبان كانوا أيضاً شعراء . وان الكنيسة الكاثوليكية ، التي لا يزال كهنتها من الرهبان ، هي أعظم المؤسسات الفنية في العالم . يجب الا ننسى أن الحب والفن قد اندغما اندغاماً مضللاً أحياناً ، ومنيراً أحياناً ، في ابن الفارض وابن عربي وسائر المتزهدين ، مسيحيين ومسلمين

ولكن هذا الحب عند هؤلاء الفنانين وعند هؤلاء الرهبان والمتدينين ، كان مكظوماً قد احتبس . ثم تجمع بخاره فانفجر أدباً وفناً . كما يحتسب الماء وقت الغليان فلا يخرج ماء إذ يستحيل بخاراً .. غازا

ولو أن الحب وجد هدفه عندهم بلا عائق وبلا كظم ، لما تسامى إلى البخار .. إلى الفن والأدب

ولا يختلف الفنان ، وقت الحماسة ، عن الحيوان وقت الحماسة الجنسية الا من حيث أن الأول قد سما بالحب إلى مستوى التعقل والوجدان . وبقي الثاني على مستوى الشهوة والغريزة

وأعظم ما يمتاز به الأدب والفن هو الغلو .. هذا الغلو الذي هو الميزة الأولى للطرب الجنسي . ولذلك نحن نجد في طرب المعانقة نوعاً من طرب الفن ، ونتحدث عنه في غلو الشعر والأدب

يجب على المجتمع أن يبيح الحب للشبان والفتيات ، لأنه حقهم الطبيعي . ولكن يجب على هؤلاء الا يستبيحوا الحب ويرخصوه . إذ هو عند الارتخاص شهوة اللحم فقط دون شهوة الذهن ، وذبذبة الجسم دون ذبذبة النفس

ولعل أسعد أوقات الحب هي تلك الساعات التي نبتعد فيها عن الحبيب حين نختلي ونتأمل ونتذكر . فاننا هنا نرتفع إلى الشعر والفن والفلسفة .. نرتفع فوق أنفسنا

والشاب الذي يهدف إلى الجمال والحب والفن يحيا الحياة الفنية ويسلك السلوك الكمالي . وما أجمل ما قاله ثورو الكاتب الأمريكي : « كل انسان يبني معبداً هو جسمه ، وهو يتعبد فيه على أسلوبه الخاص ، وهو لن يجد ما يعوضه من هذا المعبد مهما دق ونحت في المرمر . ونحن جميعا مثالون ورسامون ، ومادتنا هي لحمنا ودمنا وعظمنا . وعواطفنا النبيلة تكسب هذا التمثال الذي نصنعه من

أنفسنا جمالاً وروعة ، كما أن عواطفنا الخسيسة تكسبه حيوانية وشهوانية »

ما أجمل هذه الكلمات وما أجمل هذه الفكرة التي تعبر عنها

أن أفكارنا ، وعواطفنا ، واحساساتنا ، كل هذه تصوغ من كل منا شخصية جميلة أو دميمة ، فإذا فكرنا في القبح عم كياننا قبح له خطوط بارزة في الوجه والجسم . وإذا فكرنا في الجمال نطقت ملامح وجوهنا وتقاسيم أجسامنا بالجمال

ولن نفكر في الجمال الا إذا أحببنا . ولن نحسن هذا الحب إلا إذا كنا شعراء وأدباء وفنانين

تحرير الزواج

يجب أن يكون الزواج حراً من اعتبارات المال ، والجهاز ، ومكانة الأب العالية التي يمكن استغلالها

وأساس الزواج السعيد هو الحب ، الحب الذي لا ينبني على الشهوة وجمال الجسم ولكن على التعقل

وجمال الجسم الذي يغري ويجذب ضروري . لا شك في ذلك . ولكن إذا حرم الزواج التعقل فانه ينتهي إلى الارتطام بالصخر

وليس التعقل ان نحسب القيم العرفية الاجتماعية ، المال الذي تملكه الفتاة ، أو الجهاز الذي سيقدمه أبواها ، أو المكانة الاجتماعية للأب . لأن كل هذه الأشياء إلى الزوال . ويبقى بعدها عقل هذه الفتاة التي سنتزوجها ، وطاقتها الوراثية التي سيرثها ابناؤها منها ، وأخيرا جسمها وقامتها ، وكلاهما سيورث في الأبناء

وقد تعودنا الاهتمام بالجهاز وصار التفاضل بين عروس وعروس يقدر بقيمة الجهاز . وصار هذا عرفا . حتى لو أن أحد الآباء رفض تجهيز ابنته لكان هذا الرفض مدعاة لرفض الزواج . وهذا ما يضحك منه الاوربيون المتمدنون

والأصل لهذه الحال عندنا اننا ، بتقاليدنا الماضية ، قد لغينا الحب بين الشبان والفتيات . وأقمنا حجاباً على الفتاة حتى لا يراها الناس فضلاً عن خطيبها . وكان الزواج يجري هكذا في الخفاء والظلام . يعتمد الشاب على شهادة والدته أو أخته ولا يرى وجه عروسه الا بعد أن يدخل عليها

وقد ألغينا نحن ، بما حصلنا عليه من التمدن ، هذه التقاليد . وصار الخطيب يقعد إلى خطيبته ويتحدث إليها . وقد يخرج معها بصحبة أخيها أو أمها . ولكن يجري كل هذا في تحفظ ، في جمود

ومعنى هذا أننا لا نتزوج عن حب ، عن غرام يكتسح ويسكر ، ويجعلنا ننسى كل شيء الا هذا الشخص الذي سنرتبط به ونعيش معه نحو أربعين أو خمسين سنة

ولقاء هذه الحال ، لقاء هذا الانتفاء للحب ، نطلب ما يعوضنا منه وهو الجهاز أو المال أو مكانة الأب . وهذا هو ما يضحك منه الأوربيون الذين يتزوجون عن حب وغرام

وشهور الخطبة عند الأوربيين هي سعادة ، هي ارتفاع فوق السحب ، هي جمال وفن وفتنة ، هي خطر ومغامرة وانتظار ومؤامرة ، هي تربية لكل من الخطيبين ، تستنبط من كل منهما أجمل

الصفات وأحب الميزات . هي جهود يبذلانه كي يثبت كل منهما أنه ليس في الدنيا أجمل منه أو أعقل منه . وليس جميلاً بنا أن نحرم شبابنا وفتياتنا هذه السعادة ، هذه التربية

ويمتاز الأوربيون علينا بأنهم يتعلمون الرقص ، ويجدون فيه تدريبا على الحب وتربية للغرائز . وكلمة الرقص اغريقية وهي مشتقة من كلمة « أوركستر » التي تعني الفرقة الموسيقية . ولذلك كان ولا يزال فن الرقص أجنبياً بعيداً عن الأمة العربية . وما عرفته هذه الأمة من هذا الفن انما كان مقصوراً على الإماء أي الجواري اللائي كن يشترين بالنقد . وكانت الأمة تتعلم الرقص كي تثير في مولاها الغرائز الجنسية لا أكثر . وورثنا نحن هذه الحركات الشهوانية حتى أننا رأينا من كرامتنا عقب نهضتنا في ١٩١٩ أن نلغي الرقص كله . وكان هذا حسنا

ولكن الرقص الأوربي ليس كذلك . فانه فن عظيم رائع

تذكر أيها القاريء أن الراقصة الأوربية تنظر إلى أعلى وهي ترقص . أجل أنها تسمو

ولكن الراقصة المصرية كانت ولا تزال تنظر إلى أسفل . أجل إنها تسفل

ومن هنا الرأي الحسن عن الرقص في أوربا والرأي السيء عنه في مصر

وكثيراً ما يلتبس على القارىء ، وخاصة إذا لم يكن قد اختلط بالأوربيين ، معنى الرقص . حتى أنه حين يجد كاتباً مثلي يدعو اليه

تمثل في ذهنه صورة الراقصة البغي التي تنظر إلى كفليها وبطنها وساقيها ، وتحرك كل هذه الأعضاء وهي ترقص . في حين أني حين أكتب وأطري الرقص انما أذكر الراقصة الأوربية التي تنظر إلى السماء وتنشد الأشعار بحركاتها وايماءاتها

والاختلاط بين الجنسين في المجتمع والمدرسة والجامعة ضروري . وهو تدريب حسن للحب . بل تدريب ضروري . لأن الشاب يحتاج إلى تسديد الغريزة الجنسية حتى لا تنحرف . ولذلك يجب أن يبقى على الدوام على رفقة مع الفتيات . أما إذا انقطعت الرفقة بين الشبان والفتيات فان الغريزة الجنسية تختل وتنحرف إلى شذوذات خطيرة بل خطرة ، وهذا هو ما وقع بالفعل عند الأمم العربية وفي الهند وكثير من الأمم التي مارست الحجاب

يجب أن يكون زواجنا حراً من اعتبارات المال والجهاز والمكانة الاجتماعية

الاختلاط قبل الزواج

كلنا يمدح المعرفة ويؤثر الرجل العارف المجرب على الرجل الجاهل الغمر . إلا في الزواج . فإننا أحيانا نؤثر الجهل على المعرفة ، وفي هذا أصل للكوارث الزوجية العديدة

فهناك من الشبان الحمقى من يقولون بان الفتاة المتعلمة لا تصلح للزواج وأن الفتاة الجاهلة خير منها . وهم بهذا القول يخشون الذكاء المدرب بالتعليم في الزوجة ، ويخشون نقصهم الذي تكشفه الزوجة المتعلمة

وهناك من الشبان الحمقى أيضا من يكرهون الزواج من الفتاة التي اختلطت بالمجتمع فعملت مثلا معلمة أو سكرتيرة أو بائعة في متجر أو عاملة في مصنع . لأن هذا الاختلاط قد جعلها تعرف بعض الشبان أو تتحدث إليهم

وهذا النظر الشرقي للمرأة لا يختلف كثيراً عن نظر الصينيين لما قبل مائة سنة حين كانوا يضعون قدميها في أحذية من الخشب والحديد

حتى تعطل عن المشي والسعي وتبقى للبيت والسرير . وتنقل إلى زوجها محمولة كما تحمل التحف والطرف من الأثاث

ومجتمعنا الحاضر ، هذا المجتمع غير الاجتماعي ، لا يربينا سواء أكنا رجالاً أم نساء . لأنه يفصل بين الجنسين . وكثيراً ما يؤدي هذا الفصل إلى الشذوذ الجنسي عند الرجل والمرأة . لأن الرجل الذي يبلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو لم يجد الفرصة بل الفرص المتكررة للحديث إلى المرأة ومعاملتها والقعود إليها ينتهي بأن تتجه طاقته الجنسية نحو بني جنسه من الذكور . وكذلك الحال في المرأة

وعندما يستقر رأي الشاب على الزواج في الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو على غير معرفة وائتناس سابقين بالفتيات ، وعندما يقعد إلى فتاة للخطبة ، فإنه يسيء الاختيار . وكذلك الشأن في الفتاة تسيء اختيار الزوج إذا لم تكن قد اتيحت لها فرص سابقة بالقعود إلى الرجل والحديث معه والتعامل مع الرجال في حرفة ما . ذلك لأن الصفات التي يطلبها كل جنس من الآخر تحتاج إلى أن تكون على الدوام بارزة في الوجدان حتى لا تنسى وحتى لا تطغى عليها أفكار فاسدة وأحلام زائفة للانفصال الذي يمنع الاختلاط بين الشبان والفتيات

أننا نحرض الشبان على الشذوذ الجنسي بهذا الانفصال . بل أيضا نجعل من الزواج غشاً أو خداعاً لأن الخطيبين لا يستطيعان استكناه ميولهما الجنسية التي عطلت بالانفصال قبل الزواج . وهما يتزوجان على جهل ، على احتباس سابق مؤذ للغرائز الجنسية بل ربما على انحراف لهذه الغرائز للانفصال بين الجنسين . ولذلك كثيرا ما ينتهيان بعد شهور إلى أنهما قد أخطأ في الاختيار

أن الفتاة المثلى التي تليق للزواج ، والتي ترجع لها ولزوجها السعادة ، هي تلك التي عملت وارتزقت بمجهودها قبل الزواج واختلطت بالمجتمع وتربت التربية الاجتماعية وتحملت مسئولية الارتزاق ومسئولية المصلحة الاجتماعية وأحست أنها عضو نافع منتج في الأمة . وهي حتى حين تقف عن العمل والكسب ، بعد الزواج ، تكون قد كسبت من حياتها الماضية بصيرة بمعاني الوفاق الزوجي والكرامة الشخصية . وتكون قد قدرت الحقوق والواجبات في عمل زوجها وكسبه . وهي عندئذ تبني للمستقبل ، لزوجها ، وابنائها ، في فهم ودراية . هي انسان وليست أنثى فقط . هي أم لأولادها في حياة زوجها . وهي أم وأب لأولادها اذا مات زوجها . وهي في هذه الحال تستطيع إذا شاءت ، أن تعود إلى الكسب والاحتراف لما كان لها من مرانة سابقة

وهناك أوهام شائعة عندنا بأن الفتاة الأوربية فاسدة لأنها تعمل وتكسب . مع أن هذه المرانة السابقة في العمل والكسب تهيئها لأن تكون الزوجة المثلى التي تقدر سعي زوجها وجهده ، وهي لذلك تقدره . كما أن اختلاطها السابق بالمجتمع واحساسها بأنها منتجة نافعة للشعب يجعلها تحس الكرامة والشرف ، ويجعل القيم الاخلاقية عندها اجتماعية وليست فردية

يجب أن نتغير . ويجب أن نرفع المرأة إلى مستوى الرجل في الحقوق الدستورية . وأن نعلمها الارتزاق والكسب . وان نتيح لها الاختلاط بالجنس الآخر حتى تربي الرجل وتتربي هي معه . وهذا

الاختلاط هو الذي يجعلها ، كما يجعل خطيبها ، يحسنان الاختيار ويسعدان بالزواج

والسعادة الزوجية تحتاج إلى تكافؤ بين الزوجين . وبعض هذا التكافؤ ذهني وأخلاقي . وهو لن يتوافر الا إذا تعلمت الفتاة وعملت وكسبت قبل الزواج

زواج العقل أم زواج العاطفة

العاطفة هي التفكير الاندفاعي الذي تغلب عليه الحركة أكثر مما يغلب عليه التأمل . وهي خاصة الحيوان والطفل أكثر مما هي خاصة الرجل الناضج . ونحن نسميها شهوة حين تشتد وتغمر كياننا .

ونحن الرجال والنساء نشتهي الجنس الآخر لمحض أنه الجنس الآخر . أي أن الاشتهاء هنا لا يمتزج بالتعقل والتفكير في شخصية هذه المرأة أو هذا الرجل الذي نشتهيه . وهذا هو المستوى الحيواني

ولكن الرجل الناضج المثقف يأبى حتى الطعام إذا لم يكن فيه ما يبرر اساغته سوى الطعم الحسن ولذة الشبع . فهو لا يشتهي الطعام ويندفع إليه بعاطفة الجوع فقط .. ولكنه يزن قيمته الغذائية . بل يزن أيضاً قيمته الفنية فيتأنق ويختار

وبكلمة أخرى نحن نختار الطعام بعقولنا وليس بعاطفتنا . وكذلك يجب أن يكون شأننا في اختيار الشخص الآخر الذي نتزوجه ، نختاره بعقولنا وليس بعاطفتنا بحيث لا يغرينا أنف دقيق أو فم صغير أو وجه

مستدير أو بشرة بيضاء أو نحو ذلك ، وانما نزن هذا الشخص بعقولنا ونسأل : هل يليق أن يكون أماً أو أباً لأبنائنا ؟ وكيف تكون شخصيته بعد عشرين سنة ؟

ولا نقصد إلى القول بأننا يجب أن نهمل العاطفة . فاننا نعتقد أن الاساس لكل زواج هو الاغراء الجنسي الذي يقوم على استجمال الجسم . ولكن يجب أن نحترس من هذا الاغراء إذ هو قد يثير شهوة عمياء (حيوانية) ليس فيها أي وجدان أو تعقل للمستقبل . وكثير من المآسي الزوجية يعود إلى هذا الاندفاع العاطفي في اختيار الشخص الآخر للزواج . إذ يتضح بعد شهور حين تهدأ العاطفة أن هذا الشخص هو طراز آخر غير طرازنا واننا نختلف معه في كل خطوة وان العيش معه لا يطاق . ثم يكون الانفصال الذي ربما يقع بعد ولادة طفل أو طفلين تبقى مشكلتهما قائمة نحو عشرين سنة . أو لا يكون الانفصال الذي يضحي فيه أحد الزوجين أو كلاهما بالسعادة والوفاق ويستحيل البيت إلى جهنم حمراء للشقاق المتواصل

يجب أن نتزوج زواجاً انسانياً . ولما كانت ميزة الانسان الأولى هي العقل فان الزواج يجب أن يرتكز أكثره على العقل وأقله على العاطفة . وما دمنا نكفل الاغراء الجنسي في جمال الجسم فان الاختيار بعد ذلك يجب أن يتجه نحو الصفات الانسانية الأخرى مثل الكفاءة للمعاشرة الزوجية والكفاءة للأمومة والكفاءة للمقام الاجتماعي ونحو ذلك

وعلينا ألا ننسى أن الحب كثيرا ما يأتي بعد الزواج وليس قبله . وذلك لأننا نعاين كل يوم من هذا الشريك صفات عالية من الشرف

والرقة والكياسة والذكاء ما يجعلنا نحبه ونعجب به . بل يجب أن يكون هذا هو البرنامج لكل زواج . بل الواقع أن الحب لا يجد مكوناته ومؤهلاته أيام الخطبة السابقة للزواج لما فيها من تكلف وأيضاً لما يقوم بين الخطيبين من انفصال الا أوقات الزيارة . أما بعد الزواج فإن التكلف يسقط ويبدو كل من الزوجين على طبيعته ومستوى تربيته ، فإذا كان يستحق الحب على هذا المستوى وعلى هذه الطبيعة فإنه يحب

ويجب أن يكون هذا الحب ، بعد الزواج ، هدفاً لكل من يرشح نفسه لهذا الرباط الاجتماعي السامي . لأن هذا الاتجاه جدير بأن يهيء الفتاة والشاب إلى التزيد من الاخلاق السامية والنضج الثقافي وتحقيق المكانة الاجتماعية والاستمرار على ذلك طوال المعاشرة الزوجية . وعندئذ لا يؤدي سقوط التكلف إلى تلك البذاذة أو ذلك الاهمال الجسمي والذهني الذي كثيراً ما يجعل الزوجة رثة الثياب أو يجعل الزوج فظ الكلمات

ليس الزواج حالاً مستقرة وانما هو مجهود مستمر لزيادة الحب والحنان والمؤانسة والثقافة والنمو والنضج للزوجين وللأبناء

وأخيراً نقول أنه كثيراً ما يلتبس على القارىء القول بأفضلية زواج العقل على زواج العاطفة بأن القصد من هذا هو ايثار الزوجة الثرية ، ولو كانت دميمة الجسم أو النفس ، على الزوجة الفقيرة جميلة الجسم أو النفس . وهذا خطأ خطير . فإن هذا الزواج ، زواج المال ، هو شر ما يقع فيه انسان لأنه يحيل أحد الزوجين إلى خادم للآخر أو إلى

لص يختلس ويخدع . وليس هذا زواجا انما هو خداع ومكر وغش . وهذه كلها جرائم

* * *

عرفت شابا أغرم بفتاة غرام العاطفة المتأججة التي تعمي بدخانها أكثر مما تضيء بحرارتها . وتزوجها وبقي الاثنان في حمى الشهوة الجنسية سبعة أو ثمانية شهور

وكان هذا الشاب قبل أن يتزوج يحيا على مستوى عال من الأدب والاطلاع والاشتباك في حركات ذهنية وسياسية واجتماعية . وكان ينشد السعادة بتحقيق أهداف انسانية . وكانت له رفوف من الكتب في منزله تشبه أو تقارب المكتبة ، وكان له أصدقاء راقون يحسنون فن الحديث والمناقشة ويتفاهمون عن الموضوعات العامة أكثر مما يحسنون اللعب بالورق أو التنادر السخيف عن الحوادث والأشخاص

وبكلمة موجزة أقول إنه كان له قلب يحس الاحساسات الحميمة نحو الطبيعة والبشر والتمدن والثقافة

وبعد سبع أو ثماني سنوات من زواجه ، هذا الزواج العاطفي الذي وقع فيه دون أن يحتكم إلى عقله ، وجدته حيوانا أليفاً يشكو كثرة الأبناء ولا يفكر الا في طعامهم وشرابهم لضيق رزقه . وقد أنسته زوجته جميع القيم العالية السابقة التي كان يستمتع بها : الكتب والأصدقاء والمبادىء والطبيعة . ورأيت زوجته فوجدتها امرأة سمينة تأكل اللب (البذر) وتمضغ اللبان وتطبخ طعامها بالثوم حتى تحث

شاهيتها إليه وحتى ليفوح نتنه منها . ولم تكن تقرأ الا المجلات المصورة الوضيعة ، ولم تكن تعرف كلمات المناقشة أو موضوعاتها .

حياة وخيمة وبيت وخيم . ولو أن هذا الشاب كان قد تعقل واختار زوجة يقبلها العقل لما أكثر من الأبناء حتى يرهق بهم وحتى يحرم نفسه بسببهم متع التربية الذاتية والارتقاء المتواصل ، ولما نزل عن امانيه الانسانية السابقة

زواج العقل هو الزواج الانساني . وزواج العاطفة هو الزواج الحيواني

لغة الحب

مما يجهله كثير منا أن للكلمات أثرا في صحة النفس ومرضها . فإن كلمات المروءة والشرف والحرية والانسانية والديمقراطية والشهامة والشجاعة وامثالها تعين لنا أهدافا واتجاهات سامية . في حين أن كلمات الحسد والشماتة والانتقام والثأر والدم (بمعنى الثأر عند الصعايدة) توجه الناس نحو الشر ، كما تحدث سلاً داخليا يأكل النفس

وفي أقطارنا العربية مازلنا نستعمل كلمات لها أسوأ الأثر في العلاقات الجنسية وفي مكانة المرأة في المجتمع وارتقائها . فإن المرأة حين تبلغ التاسعة والأربعين نقول أنها بلغت سن « اليأس » وهذه كلمة بشعة جديرة بأن تزعزع الكيان النفسي في المرأة ، وخاصة إذا كانت لها ضرة أصغر منها في السن أو كانت تخشى الطلاق أو كانت تعاني حديث الحماة المنافرة . إذ نحن نقول للشاب حين نجد منه خوفا أو احجاماً : لا تيأس . ولكننا نقول للمرأة : أيأسي : موتي !

ولو أننا اسمينا هذه السن سن الحكمة أو سن النضج لكان لهذا التعبير قيمته الكبري في السكينة النفسية والكرامة الشخصية عند المرأة .

وكذلك نحن نرتكب جريمة لغوية أخرى عندما نسمي الأعضاء التناسلية في الرجل أو المرأة باسماء الاستهتار والاحتقار . لأننا بذلك نلصق بها خسة أو رذيلة وكأننا نجعل مقاطعتها بالنسك والرهبنة فضيلة . وهذا على الرغم من أن هذه الأعضاء هي الوسيلة للخلود البشري ، وبدونها يكون الانقراض للنوع البشري كله

أن الأوربي يجد في لغته كلمات سامية تعبر عن الحب ، ويقرأ قصصاً عالمية يفهم منها أن الحب رقة وحنان وشرف ووفاء وأن الأعضاء التناسلية من أشرف ما تحتويه أجسامنا . كما أنه يحترم المرأة ويعدها مساوية للرجل . وهو ، لهذا السبب ، عندما يفكر في الحب والزواج يجد من هذه الكلمات ، ومن هذه القصص ، ومن مركز المرأة الذي يساوي مركز الرجل ، يجد من هذا كله أسلوبا يتخذه في الحب وأخلاقاً يتخلق بها في الزواج .

ولكننا في مصر قد تعلمنا كلمات بذيئة عن الأعضاء التناسلية ، ونكات داعرة عن الاتصال الجنسي ، وقرأنا قصصاً | مهينة للكرامة عن الحب والزواج ، وفشت على السنتنا كلمات ، أي أفكار وصور ، جعلتنا نقترب من هذه الموضوعات كلها كما لو كنا حشاشين داعرين

وأحيانا يحدث التصادم . من ذلك مثلا ما شاهدته بنفسي . فإني

عرفت شاباً وقع في جنون المراهقة ، الشيزوفرينيا ، لأنه رأى والديه في وضع زوجي

ذلك أنه نشأ على أن الأمومة مقدسة . ولكن الاتصال الجنسي مدنس . فلم يستطع التوفيق بين الاثنين . وطار عقله إلى غير رجعة

ولو أننا كنا قد علمناه الكلمات المهذبة عن الحب والزواج ، ولو أنه لم يكن قد سمع كلمات الحشاشين عن الأعضاء التناسلية ، ولو أنه كان يختلط بالجنس الآخر الاختلاط المهذب في ضوء الصراحة لما استغرب هذا المنظر الذي صدمه واطار عقله

أجل . أن لنا كلمات وعادات في مصر تذهب أحيانا بابنائنا إلى المارستان

يجب أن نعلم ابناءنا وبناتنا وظائف الأعضاء التناسلية التي يجب أن نحوطها بهالة تنأى بها عن النكتة القذرة والنادرة السمجة . لأن هذه الأعضاء هي للخلود البشري . وهي ليست للنكات والنوادر

وهذه النظرة الساخرة الاستهتارية التهكمية للأعضاء التناسلية وللمرأة هي تراث القرون الماضية حين كان يشتري الرجل المرأة للاستهتار الجنسي فيلعب ويعبث بها كما يشاء . فلم تكن علاقته بها علاقة الانسان بالانسان وانما كانت علاقة الانسان بالعبد . ثم كان من تفشي الاتصال الجنسي الشاذ دافع آخر يجعل من ذكر الأعضاء التناسلية خسة وبشاعة

أما الرجل الذي يمتاز بنظافة القلب والعقل فلا يجد في هذه الأعضاء ما يثير السخرية أو التهكم . هو رجل أمام المرأة ، هو انسان

ازاء انسان ، كلاهما يحب الآخر ويحترم انسانيته ويعجب بجمال جسمه وجمال نفسه معاً

يجب أن يتعلم شبابنا فن الحب ، فن الحياة الزوجية التي تمتلىء بالحنان والسرور ، في احترام متبادل بين الزوجين

لقد كانت تقاليدنا الاجرامية تقتضي العريس أن يفض بكارة عروسه في الليلة الأولى من الزواج بأسلوب وحشي قد ارتخص فيه الحياء وقد استعين فيه على اسكات العروس بنسوة رقيعات يغمرهن احساس للشماتة ولذة التعذيب . وكانت هذه الليلة تبقى بعد ذلك رمزاً ، أسوأ الرمز ، لافتتاح الحياة الزوجية بالصراخ والدم

ولكننا قد ارتفعنا في أيامنا وأقلعنا عن هذه العادة . ويجب أن نرتفع ونقلع عن عادات أخرى لغوية وعملية في الحب والزواج . وأنه لمن الضرر العظيم ، للنفس والجسم ، أن يعيش كل منا نحو خمسين أو ستين سنة في حال زوجية ثم نجعل هذه الحال أسراراً وألغازاً ونكات ونوادر بدلاً من أن نكشف عنها ونسلط عليها أضواء سيكلوجية تنيرها وتزيد سعادتها وتبرز لمعتها

أن الزواج ، كي يكون سعيداً ، يجب أن يكون حراً ، لا اجبار بل لا اغراء فيه ، لاحد العروسين أو الخطيبين . ويجب أن تسبقه مدة للاختبار حين يترافق الخطيبان للتعارف كما يجب أن يكون قائماً على الدوام على العقل وليس على العاطفة

ويجب أن نعلم شبابنا كيف يحترمون كل ما يتصل بالتناسل ويرتفعون به عن كلمات الاحتقار والاستهتار . لأن الكلمة السيئة

التي يتعلمها الشاب مدة عزوبته تحمل الفكرة السيئة التي يمارسها بعد ذلك مع زوجته

كلمات اللغة هي عادات التعبير باللسان والسلوك الزوجي والاحساسات العائلية والمعيشية فيجب أن نقاطع الكلمات البذيئة الزرية لأنها تحملنا على سلوك بذيء زري يفسد القيم الزوجية والاحترام لأعضاء الخلود البشري . وبكلمة أخرى ، يجب أن نتعلم كلمات الحب المهذبة حتى نعامل زوجاتنا المعاملة الجنسية المهذبة ، ويجب أن نقاطع كلمات الحشاشين لأنها ، إذا ثبتت على ألسنتنا ، اكسبتنا عقلية الحشاشين في معاملة الزوجة

ابن حزم والحب العذري

المعنى الحرفي الذي نستطيع أن نستخلصه من عبارة « الحب العذري » هو الحب للفتاة العذراء بحيث يدوم الحب مع عذريتها. ولكننا نجد أن الذين مسوا الحب من هذه البؤرة قد أضافوا اليه من الخيال والحنان والرقة والانسانية ما سما به الى معان جديدة ترتفع على هذا المعنى الأصلي .. فجعلوا المحب ينشد الطهارة حتى ولو لم تكن حبيبته عذراء

وقصص العرب الخيالية أو الحقيقية عن قيس ولبنى أو المجنون وليلى، هي من هذا القبيل. فاننا نجد حبيبين يتعاهدان على الوفاء. فيذكر كل منهما الآخر في قلبه ويجري اسمه على لسانه وتعود إليه ذكراه في رقة وحنان. وقد يلتقيان فلا يكون بينهما سوى الحديث. حديث القلب الذي تشرف عليه رقابة العقل لأن أحدهما مرتبط بزوج آخر يجب أن يجد الأمانة والعفة من زوجته حتى ولو أحبت غيره

ومثل هذا الحب يطلق الشعر . فقيس لبنى ومجنون ليلى كلاهما شاعر . وقد ورثنا عنهما أجمل الأشعار الخالدة في المعاني السامية للوفاء والحنان

وكلمة « اللوعة » هي احدى الكلمات الحميمة في هذا الحب العذري . إذ هي تعني الشوق في ألم لذيذ . هو احتراق لا يلسع ولكنه يدفىء . وآلام المحبين هي لوعات قد يضنون منها ولكنهم يلتذون ضناهم . وهم على الدوام محسودون على لوعتهم وضناهم

والقليل من التأمل في الألم واللذة ، في الحب واللوعة ، يحملنا على الاعتقاد بأن كل ألم ، إذا خف ، يعود لذة . وكل لذة إذا اشتدت ، تعود ألما

السنا نضحك من التجميش . نتألم من القرص ؟

★ ★ ★

والحب العذري أكثره بل كله لوعة ، إذ هو في صميمه ألم لذيذ

ذلك أن المحب يرتفع بحبه إلى التضحية . فهو يخشى على حبيبته أن تفتضح . بل هو يخشى عليها الخيانة لمن ارتبطت به إذا كانت متزوجة . أو يحب أن يصون عذريتها كما لو كان أخاً أو أباً . فهو لذلك يألم ويحس اللوعة ولكنه يرضاها إيثاراً لحرمة حبيبته . ومثل هذا الحب يدوم طويلا . بل هو يخلد طيلة عمر المحبين إذ هو نار لا تنطفىء أبدا . نار تضطرم دون أن تشتعل

ونستطيع أن نصف هذا الحب بأنه فلسفي . من حيث أن الحكمة

والتبصر والحنان وسائر ما يتصل بهذه المعاني تسوده . كما أن لغته هي لغة الفن : شعر أو رسم أو لحن أو غناء . ومن هنا عناية الامام ابن حزم الأندلسي بهذا الحب . فقد أرسل له كتاباً جميلاً يدعى « طوق الحمامة » . وقد مات ابن حزم في سنة ٤٥٦ هجرية وخلف لنا ثروة من الأدب والفلسفة والشعر . ولكن هذا الكتاب هو أجملها وأن لم يكن اثراها . وهو يعالج فيه سير المحبين ويقارن بين الحب المفاجىء والحب بالمطاولة . وفضل التعفف والوفاء . والهجر والغدر . بل أنه يخص موت المحبين بفصل

وهو ينكر الحب من نظرة واحدة ويقول عن نفسه : « وما لصق باحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص لي دهرا . وأخذي معه في كل جد وهزل »

وهذا كلام حكيم يتبصر وينأى عن رعونة الحب . ذلك أنه لا يحب وجهاً مشرقاً أو جسماً منيفا . وانما هو يحب بعد أن ينفذ إلى قلب حبيبته ويقرأ عقلها ويعشق شخصيتها . وكل هذا يحتاج إلى وقت لا تكفيه « نظرة واحدة »

ولذلك يرى ابن حزم ان الانسان لا يستطيع الحب لاثنتين ويقول : « واما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي ، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة .. وهي على المجاز تسمى محبة ، لا على التحقيق . واما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه . فكيف بالاشتغال بحب ثان ؟ »

وهو يذكر لنا وفاء زوجة يذكر اسمها واسم زوجها على أنه كان يعرفهما فيقول أنهما كانا على حب عظيم . فلما مات الزوج « بلغ من اسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله . ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها »

ويروي لنا ابن حزم قصة موجزة عن غرام موجز . ونحن نحس بعد أن نقرأها ، كما كتبها بقلمه ، أننا نود لو نسأله كيف رضي امام الأندلس بروايتها . فهو يقول :

« حدثني ثقة من اخواني ، جليل من أهل البيوتات ، أنه كان قد علق في صباه جارية في بعض دور آله . وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها . قال : « فتنزهنا يوما إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض أعمامي ... إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث . فلم يكن من الغطاء ما يكفي الجميع . فأمر عمي ببعض الأغطية فألقي عليّ وأمرها بالاكتنان معي . فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون .. ويا له من جمع كخلاء واحتفال كانفراد .. » وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك . وهو يهتز فرحا على بعد العهد وامتداد الزمان ».

وقبل أن أترك ابن حزم يجب أن أنقل منه هذه الحادثة التي يرويها عن نفسه وكأنه قد انتشى بالذكرى التي تلهمه أجمل الكلمات وأبلغ المعاني . قال :

« ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض

قراباتها من اللائي قد ضمتها معي النشأة في الصبا . ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت . ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب . وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت . وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت . وانبعثت من خديها ازاهير الجمال فنمت واعتمت... وبت عندها ثلاث ليال متوالية . ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية . فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسيّ الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول الدار خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان »

* * *

وهذا الكتاب « طوق الحمامة » قد كان إيحاء جديداً للثقافة الأوربية في القرن الحادي عشر . فقد كانت الأندلس في ذلك القرن القطر المتمدن الوحيد في أوربا . وكان العرب الذين يقطنونها على اتصال بأقطار العالم العربي من سمرقند شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غربا . في حين كانت الثقافة الأوربية لا تزال قروية لا تعرف شيئا من التجارة العالمية التي تبعث الحضارة بتبادل السلع وتحيي الثقافة بالتبني للغريب من الأفكار والعادات

ولذلك كانت الحرية الفكرية على أعلاها عند الأندلسيين وكانت الفنون كذلك على اتقنها ، وكان الأوربيون يأخذون من الأندلس علوماً وآداباً وفنونا

وكان « طوق الحمامة » هذا بعض ما أخذوا . فعرفوا منه الحب العفيف ، الحب العذري ، وألفوا القصائد والقصص عن النبلاء الذين

يخرجون لإنقاذ العذاري وحماية السيدات ، وفشا من ذلك فن القصص الغرامي الخيالي الذي عم فرنسا في القرون الوسطى . وكان له طابعه ، ليس في الأدب الفرنسي فقط ، بل في الأخلاق الفرنسية ، أخلاق الحب بين المتمدنين

وهذا القصص الغرامي الذي فشا بإيحاء كتاب الامام ابن حزم قد ارتفع بالشهوة الجنسية إلى الحب العفيف ، وعين له أسلوب وجعل متعة الشباب وسعادة الجنسين ، ونص فيه على حق كان ينكر من قبل بحكم العادات والتقاليد

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة « الحب » من الكلمات التي تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك احتاج مترجم الانجيل إلى أن يستعمل كلمة « المحبة » للمعنى المسيحي الخاص.. وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا : أنه يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله . فاننا هنا ازاء طائفة من المعاني المختلفة التي كان يجب أن يكون لكل منها كلمة خاصة تبعث احساساً خاصاً

ونحن نقتصر هنا على معنيين : هما الحب الجنسي والحب البشري . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر ، الاخاء والصداقة والتعاون ، إلى الحب الجنسي . كأن هذا هو الجذر الذي إليه ترجع عواطفنا البشرية السخية . ولكن الحقيقة أن كلاً منهما يرجع إلى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسي هي التناسل . وغاية الحب البشري هي تكبير الشخصية والتعاون الاجتماعي والرقي العائلي والنمو الذهني

وليس هذا الذي نسميه « حبا جنسيا » ضروريا للتناسل . فان السمك مثلاً يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب . لأن الذكر يلقي أحيانا بجراثيمه في الماء . وكذلك الانثى تلقي بويضاتها في الماء مثله . ثم يتم التلاقح في الماء دون أن يعرف الذكر الأنثى

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتي تتضح من سلوكه هي عاطفة الافتراس والأكل والالتهام . فان الذكر يفترس الانثى وليس بين الاثنين حنان . وأحياناً ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة وافتراس . وإذا كان الحب الجنسي بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فانما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التي ارتقت بها عواطفنا

أما الحب البشري فمرجعه إلى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها وحب هؤلاء لها . وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسي . إذ هي تنضح حناناً ورقة ، وهي تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا .

والانسان البدائي كان دائم الارتحال . فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربيهم . وكان تعقلهم بها يحملهم أيضا على أن يتعلق أحدهم بالآخر . فإذا ماتت الأم مثلا بقي الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة ، يتعاشرون ويتعاونون . وهذه الأخوة بينهم هي أصل الأخاء البشري بل أصل المجتمع

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول إنه إذا أحب الرجل المرأة حبا عميقاً بشريا فان هذا الحب يحول دون الحب الجنسي . كأن

هناك تناقضا بين الاثنين : الأول كله حنان ورقة . والثاني بعضه افتراس وقسوة

وعندما نتأمل الحب الجنسي نجد أنه غريزة ذاهلة . ولكن الحب البشري عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب البشري الذي ترتقي به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستنبط هنا أحسن الخصال في الحنان والرقة والظرف والكياسة بل أحياناً في التضحية . وهذا الحب هو الذي يجعل الانسان انسانياً . وما ندعو إليه من اخاء بشري ، أو ما نقدره من خصال في صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضي بأن نضحي لتحقيقها ، انما كل هذا يعود إلى الحب البشري الذي كسبناه من عواطف الأمومة والبنوة

قلنا أن الحب البشري عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد فهماً بالحب . لأن الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقض الحب الجنسي الذي ننساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضاً كثيراً ما نجد أن بذور العبقرية ، أو على الأقل النبوغ ، تعود إلى الحب . لأن الصبي الذي يحب الطبيعة ويجمع الأحياء أو الزهور أو الأصداف والمحار ، هذا الصبي يحدوه حب بشري قد استحال إلى حب للطبيعة ينبه ذكاءه ويبسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو بهذا الحب أقرب ما يكون إلى النبوغ أو العبقرية . لأنه ، بالحب ، يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الأم في ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذي تحس به نحوه

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أي الحب ، يملأنا تفاؤلاً فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء

أو على الأقل نلتزم أصدقاءنا ونخدمهم في سرور . وإذا جعلنا أساس علاقاتنا بالناس والدنيا حباً فاننا لا نسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو إلى العطف والفهم

ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج إلى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئاً من الحب العائلي أي من علاقتنا بالأم والأخوة والأب . ولكن هذا الذي نكسبه عفواً في طفولتنا وصبانا يحتاج إلى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب

والرجل الذي تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب الناس إلى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء . وكلمة السعادة من الكلمات التي يجب الا نخلطها باحساس السرور ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل

ومن هنا تأكيد الأديان جميعها للحب . إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحياً للحب . ذلك أن الحب يحتاج إلى تربية كما يحتاج إلى مرانة . ويجب لذلك أن يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعمليا من ناحية أخرى بالمرانة

فنحن نعرف أن الرجل المثقف الذي يتجه الوجهة العالمية ويدرك الدلالة للتطورات التاريخية ويدأب طوال عمره في درس الشؤون

البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب ، لأنه يعرف ، أكثر من غيره . وقلبه اسمح لأنه أعرف . فاتساع المعرفة سبيل إلى اتساع الحب . ولهذا السبب أيضاً يعد الأدب في صميمه ، والفلسفة في صميمها ، دعوة إلى الحب البشري والخير العام

ولكننا نحتاج ، كي نجعل الحب مزاجنا النفسي واتجاهنا الأخلاقي إلى المرانة . أي يجب أن نؤدي عملا ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضيء /هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذي يعين الهدف والسلوك . وقد يقنع أحدنا بالإحسان لمعاونة الفقراء . أو الانضواء إلى جمعية لمنع القسوة على الحيوان أو معاونة الصبيان المشردين أو نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف أكثر لأن ثقافته أوسع وأعمق . وهو لذلك أنفذ بصيرة في الأسباب التي تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، أن الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأنها جماع الاصلاحات التي ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملا آخر . ولكن المهم أننا نحب ممارسة الحب . وأن هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهماً وسعادة . ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذي يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقال وقصارى ما يقال واسمى ما يقال عن الدين

التعقل في التناسل

ليس هناك مأساة أعمق ألماً وأشد لوعة من أن يرى الابوان طفلهما وهو ينأى عاماً بعد آخر عن النمو البشري السوي . وجه يتكتل بلحم يشبه الجلد الثخين وعينان مغوليتان . وهذا إلى لجلجة تشبه الخرس مع عجز عن ترتيب الكلمات وقصور عن فهم المعاني ثم ركود عام في الجسم والذهن ثم توقف عن النمو حوالي سن العاشرة أو بعد ذلك بقليل

ونحن الآباء عرضة لأن نعقب مثل هذا الطفل . ولكن الاحتمال ضعيف بحيث يقارب الانتفاء . وقد أعقبت المؤلفة الأمريكية بيرل بك صاحبة قصة « الأرض الطيبة » بنتاً بلهاء من هذا الطراز المغولي ، وقد عنيت بها كثيراً تأمل أن تشفيها وتردها إلى سواء البشر . ولكنها لم تفلح . وأخيراً سلمتها ، وهي في لوعة الشوق إليها والحزن عليها ، إلى مصحة تقضي فيها سائر حياتها بعيدة عنها

وقد ذكرت هذه القصة كي أبين أن التناسل لا يمكن أن يترك جزافاً كأنه حق لكل انسان . فإننا نعقب الحسن والسيء من الأبناء . لأنه إذا كان الزواج حقاً للزوجين فان التناسل ليس حقا لهما

ومع أن هذا الحادث الذي وقع لبيرل بك لا يمكن الحذر منه وارتعاب وقوعه فان هناك ما يقاربه من الاستهتار التناسلي . أم بلهاء من أسرة اشتهرت بالبلاهة ولكنها ثرية تتزوج وتعقب للشعب نحو سبعة أو ثمانية أشخاص من البله العاجزين أو هي قد تعقب الحسن من الأطفال ولكنها ، لأنها بلهاء ، تسيء اليهم في التربية وتعودهم رجوعات واستجابات مؤذية تجعلهم ينشأون نشأة غير اجتماعية

نحن البشر لا نختلف عن الحيوان . كل عائلة منا هي سلالة قائمة منفصلة لها صفاتها الحسنة أو السيئة . ويجب أن نحذر الإصهار إلى عائلات اشتهرت بالبلاهة كما نحذر الإصهار إلى عائلات اشتهرت بالدمامة . أي يجب أن نطلب الجمال والذكاء معا فيمن نتزوج

ومع أن مؤلف هذا الكتاب يؤمن كثيراً بقوة الوسط وتأثير التربية والقدوة الأولى أيام الطفولة فانه مع ذلك لا يستطيع أن ينكر الوراثة إذ هي حقيقة بارزة لا يمكن اهمالها

وثق أيها القارىء انك حين تتزوج وتعقب فان ابنك قد يكون أشبه بخاله أو عمه منك أنت . ولذلك أنت ، بيولوجياً ، تتزوج العائلة كلها وليس الفرد الذي يشاركك في البيت وحده

واعتقادي أن اليوم ليس بعيداً حين تتدخل الحكومات في التناسل وتقرر لكل فرد عدداً من الأطفال يتناسب مع مواهبه في الجمال

والذكاء . بل هي قد تمنع البعض من التناسل ثم تكافىء الاخرين حتي يزيدوا من عدد أبنائهم

وهناك حكومات كثيرة تمارس هذا المنع الآن . بل أحياناً تخصي هذه الحكومات الآباء أي تعقمهم حتى لا يتناسلوا اعتقاداً بأنهم لو فعلوا لكان أبناؤهم على غير ما تحب الدولة من كفاءة عقلية أو صحية في أبنائهم

ونحن العاديين يجب أن نتعقل ونمارس التناسل وفقاً للحال المعيشية التي نكون فيها . فإذا كنا فقراء وأحوال العيش غير ميسرة للتعليم والصحة والرفاهية فيجب أن نتناسل في اقتصاد . وإذا كنا أثرياء فلا بأس من التناسل بلا حساب غير حساب الصحة في الوالدة

ولكني لا أدعو إلى تحديد النسل باعتبار هذا التحديد خطة عامة تعمد إليها الحكومة ويتبعها الشعب . لأن مثل هذه الخطة تعد تدميرية تعمل للهدم وليس للبناء . وهي تبعث على الركود الاقتصادي بدلا من الإقدام

ففي مصر مثلا نحو ثلاثة ملايين فدان يمكن اصلاحها . كما أننا نستطيع أن ننشىء نحو ألفي مصنع تستوعب نحو ستة أو سبعة ملايين من العمال . وإذا أتممنا هذه الإنشاءات الاصلاحية فإن مصر تستطيع أن تستوعب نحو ثلاثين مليونا يعيشون في رغد ورفاهية

وبكلمة موجزة نقول أنه كي نكون سعداء يجب أن نتوقي الزواج من فتاة ناقصة الذكاء . ويجب أن نحدد النسل بحيث نستطيع تربية الأبناء دون ارهاق لنا أو اعمال لهم

بل أقول أكثر من ذلك . وهو أنه إذا وجدت الأم أو الأب أن هناك فيمن ولد لهما من أطفال اتجاهاً نحو ضعف العقل أو الجسم فعليهما أن يكفا عن الزيادة في التناسل . ويحسن الأب عندئذ إذا عمد عن اختيار وتعقل إلى التعقيم الذي يتيح له الاتصال الجنسي ولكن مع العقم التناسلي

الرجل والمرأة والزواج

نحن نعيش في بيوتنا أكثر مما نعيش خارجها ، ولن تهنأ حياتنا لهذا السبب إلا إذا عنينا أكبر العناية بأن نجعل بيوتنا حاوية لصنوف الراحة والرغد . وحياة العزوبة هي حياة ناقصة قليلة الاختبارات والمتع . والمتزوج قد لا يطول عمره أكثر من العزب ولكن حياته أعرض . وهي أعرض بالمسرات بل والأحزان التي لا يعرفها العزب

ومعظم العمر نقضيه مع زوجة قد عرفناها في الأغلب بعد سن العشرين أو الثلاثين ، وقد عاش كل منا قبلا في بيئة تختلف عن البيئة التي عاش فيها الآخر ، ولذلك ليس بعيداً أن نصطدم وأن تحفل الحياة الزوجية بالمتاعب

ولكن هناك ما هو أخطر من هذا ، ذلك أننا نعيش في مجتمع اقتنائي تحاسدي يجعل الأنانية فضيلة ويحملنا على المباراة واقتناء المال . ثم يشملنا هذا الروح فتعود الأنانية والرغبة في الخطف والاقتناء والحسد والحقد والبعد عن الحب والتعاون ، كل هذا يعود كما لو كان

هو الطبيعة البشرية الأصلية . فإذا تزوجنا عاملنا الزوجية وفق ما تعلمنا وتدربنا عليه في المجتمع ، فنطالب الزوجة بالخضوع ، ونطالبها بأن تخدم ملذاتنا ، ثم نلتذ ملذاتنا على انفراد نفسي وفي خطف ونهب كما كنا ، ولا نزال ، نعيش في المجتمع .

وليس هذا المجتمع الذي وصفنا جديداً ظهر في عصرنا ، إذ هو قديم قد رسخت أخلاقه في سلوكنا وتصرفنا ، وهو يشقي حياتنا الزوجية . وله علامات تخفى أحياناً على الناقد فضلاً عن عامة الناس . فان أتوقراطية الرجل ورغبته في أن تكون زوجته أداة للذة يقابلها دلال المرأة وغيرتها الجنونية من الأوهام والحقائق . وكلاهما يسير بروح الاقتناء والخطف كما لو كان كل منهما تاجراً يشتري رخيصاً كي يبيع غاليا .

واسوأ ما تعلمناه من هذا المجتمع الأناني التحاسدي الاقتنائي الذي نعيش فيه ، أننا ننظر إلى المرأة جنسياً بدلاً من أن ننظر إليها انسانيا . فهي امرأة فقط وليست انسانا ، نعني اننا نقتنيها كي تخدم ملذاتنا وتغسل أولادنا . فهي ليست الانسان المتعاون الصديق الزميل الذي نرافقه ونصادقه ، ولذلك كثيراً ما تستحيل البيوت إلى مطاعم أو فنادق للأكل أو النوم فقط . وهذا المنظر يوهم الكسب للرجل ، ولكنه في صميمه يعود عليه بالخسار أيضا حتى من ناحية اللذة الجنسية ، إذ هي في هذا النظام تتقلص إلى الخطف والنهب ، فتجري وكأنها صرع تشنجي ، أو كأنها طرب جنوني يغمر الجسم في عجل ثم ينطفيء فجأة .

لذة عابرة خاطفة لا نذكرها بالحنان والحب والصداقة ولكن

بالخطف وأحيانا بالقسوة والاغتصاب . وكثير من الشذوذات الجنسية لهذا السبب يعود إلى المبالغة في الانسياق في الصفات الاجتماعية التي يطالبنا بها النجاح في الكسب والوجاهة والتفوق . إذ أن هذه جميعها تحتاج إلى الخطف والنهب والقسوة والحسد والأنانية بل أحيانا إلى الغش . والشذوذات الجنسية هى في صميمها غش

واللذة الجنسية هي في صميمها وفي أسلوبها نقطة التبلور لاتجاهنا الاجتماعي وأخلاقنا الاجتماعية ، فليذكر هذا كل شاب وكل فتاة

ومن هنا الكثير من الرذائل التي تحسب في ظاهرها رذائل زوجية ولكنها في باطنها رذائل اجتماعية . فإن الشاب الذي يخشى أن يتزوج الفتاة المتعلمة انما هو في صميمه يخشى المساواة التي لم يتدرب عليها في المجتمع . إذ هو نشأ في مجتمع قد غرس فيه الرغبة في التفوق والتسلط والأنانية والخطف ، فكيف يمارس كل هذه الصفات في حرفته ومعاملته وينساها في الزواج ؟ فهو يعامل زوجته تلك المعاملة الحميمة التي تعلمها من البغي حين كان يؤدي ثمن لذته بالقرش والمليم ، ويخطف منها هذه اللذة خطفا . وهذه المعاملة ترسخ فيه فلا يعرف كيف يغيرها . ولو أنه كان قد نشأ بروح التعاون والحب والمساواة لكانت اللذة الجنسية نفسها لا تتم إلا بهذه الصفات ، وعندئذ كانت تكون متبادلة هنيئة للزوجين

ولهذا أصبح الزواج كأنه صفقة حيوانية تتم بين الرجل والمرأة لا تسودها الحب والثقافة . أجل الحب والثقافة . وكلاهما لا يعرفه الحيوان

ولكن حتى المقارنة بيننا وبين الحيوان لا تدل على أن الكسب في

جانبنا ، لأن أقل ما يقال في الحيوان إنه ينساق بغريزته الساذجة الفطرية ولكننا نحن نفسد هذه الغريزة بعادات المجتمع الانفرادي القائم على الخطف والخوف والنهب والحسد والاغتصاب . فنحن لا نتعاون في اللذة الجنسية ،بل نتخاطفها في طرب جنوني وصرع وقتي ، سرعان ما نفقدهما ونعود إلى ما يقارب اليأس والجمود والنفور

ولن يتحقق الهناء الزوجي الا بعد أن يعيش النساء والرجال في تعاون وما يجلبه هذا التعاون من حب واخاء ومساواة وطمأنينة واستبشار بالمستقبل . لأن المجتمع الذي نعيش فيه في الوقت الحاضر يشقينا بالقلق ، فنحن نقلق ونخاف ، نخاف الفقر والمرض والهزيمة في المباراة الاقتصادية والافلاس ، كل هذه الصفات تنتقل إلى العلاقة الجنسية ، فتعود هذه العلاقة قلقة غير مطمئنة

أى أن نظامنا الاجتماعي ينتقل بأساليبه إلى نظامنا الجنسي . فإذا كنا نخاف الدنيا ونهرول ونخطف ونقلق ونحسد ونؤثر أنانيتنا على مصلحة أخواننا في المكتب والمتجر والسوق والمصنع ، فاننا ننقل كل هذه الصفات إلى العلاقة الجنسية ، فلا نستمتع بالغريزة الفطرية التي يستمتع بها الحيوان بل نفسدها باحساس سيء من حياتنا الاجتماعية السيئة

ولذلك نحتاج ، كي تهنأ الحياة الزوجية وتزول الشذوذات الجنسية ، إلى مجتمع تعاوني سوائي يقوم على الحب وليس على المباراة ، أى يجب أن نعيش في نظام اشتراكي ويجب أن يتعلم الرجال والنساء منذ ولادتهم إلى وفاتهم ، الاختلاط والتعاون والمساواة . ويجب أن نطمئن على عيشنا فلا يكون هناك قلق يغمر شخصيتنا

ويحملنا على الهرولة والخطف : هرولة وخطف في المجتمع يؤديان إلى هرولة وخطف في التعارف الجنسي .

فإذا تم هذا ، أي إذا تغيرت « الطبيعة » البشرية ، وهي في صميمها طبيعية اجتماعية ، وإذا تساوى الرجال والنساء ، عمت الطمأنينة وزالت الرغبة في التسلط . وعندئذ تهنأ الحياة الزوجية وترقى على أسس من التعاون والحب والثقافة ، فلا تكون غريزية كالحيوان ولا شقية بالاحساس الاجتماعي السيء الحاضر . وتخرج المرأة من أنثويتها الضيقة إلى ميدان الانسانية الواسع

احترام المرأة

كان هنريخ هاينيه من أدباء أوربا الذين كتبوا النثر بمعاني الشعر وايقاعه . وهو ألماني الأصل ، فرنسي الأسلوب ، انساني النزعة . وكانت الأمراض قد حطت عليه وألزمته السرير سنوات وكان يقابلها بابتسامات التهكم وكلمات المزاح التي أثرت عنه كأنها من الخوالد التي لا يزال يتنادر بها الأدباء ويتفكهون بمعانيها الأنيقة العميقة

ولما رأى أن الوفاة قد اقتربت ، وأن زوجته لا تزال في شبابها كتب وصيته وشرط على زوجته أن تحرم ميراثه إلا إذا تزوجت بعده

وهذا العمل هو نقيض ما نرى أحيانا في بلادنا حيث تحرم الأرملة الميراث إذا تزوجت ، لأن الزوج يغار وهو في قبره من زواجها ، وهو يريد أن يتحكم في مصيرها حتى عندما تكون الديدان قد تولت أفناء جسمه

وهذه الأنانية النكدة التي يعامل بها بعض الأزواج زوجاتهم عندنا والتي يفرضون بها عليهن عزوبة قد تلقي بهن في المآزق الاجتماعية

الخطرة ، قد قابلها هاينيه بغيرية سخية ، إذ أصر على أن زوجته الشابة يجب أن تستمتع بزواج آخر عقب وفاته ، يرافقها سائر حياتها ويخفف عنها أعباء الدنيا التي ربما لم تكن لتستطيع تحملها وحدها وهي أرملة .

أننا في مجتمعنا نعتاد عادات البخل خشية المستقبل المجهول ، ويعود هذا البخل كزازة نفسية وانطواء عاطفيا ، كأن شعارنا في الحياة « أنا وحدي » . ويسري هذا الإحساس في كياننا ويسيطر علينا فنساق به ، ونحاول أن نجعل هذا الاحساس خالداً بشروط وقيود على زوجاتنا بعد الوفاة ، فنمنع ونمنع بالوقف والوصية ، ونترك البغض والكراهية بين الوارثين ، ثم نشرط الشروط والقيود على الزوجة بحيث لا تستطيع أن تأكل لقمة مما خلفنا إلا إذا حرمت نفسها الاستمتاع بالزواج

حبذا هذه الوصية التي تركها هاينيه تنبه الانانيين إلى قيمة السخاء في النفس ، وإلى أننا حين نترك الدنيا يجب أن نخلف وراءنا جواً من الخير والحب بدلاً من هذه القيود التي يتألم منها الاحياء حين يكون واضعوها عظاما رميمة في القبور

وهذا السلوك الذي يأخذ به بعض الأزواج في مصر ، حين يشرطون على الزوجة الا تتزوج بعد وفاتهم والا حرمت الميراث هو في صميمه ذلك الأسلوب الشرقي الذي كان يعم أقطار آسيا مثل الصين أو الهند حين كان الآباء الصينيون واليابانيون يبيعون بناتهم ، أو حين كانت الأرملة الهندية يطلب منها أن تحرق نفسها عقب وفاة زوجها . وإذا كان هناك اختلاف بيننا وبين آسيا فهو اختلاف

الدرجة فقط . وفي قرى الصعيد لا يزال الزوج ينادي زوجته بقوله « يامرة » فقط . بل أحياناً نرى نعي المتوفين في الصحف فنجد أن الزوجة توصف بأنها « حرم » فلان كان ذكر اسمها عار

وعجيب أن يبقى مركز المرأة في مصر على هذا الانحطاط بعد الجهود العظيمة التي بذلها قاسم أمين وهدى شعراوي ودرية شفيق وآلاف الطبيبات والمحاميات والمعلمات والممرضات والممثلات اللائي خرجتهن جامعاتنا فانتشرن في آفاق وطننا وملأنه بالخدمة البارة

لقد عرفت هدى شعراوي وتعقبت نشاطها الاجتماعي وتضحياتها العظيمة ، ومنشآتها العديدة لخدمة المرأة . ووقفت ذات مرة في مقر جمعيتها وناديت بحق المرأة المصرية في انتخابات البرلمان . وكان مما قلته ، ولا يزال صحيحا للأسف ، ان للفرّاش الذي يكنس هذه القاعة التي القي فيها كلمتي ، حق الانتخاب ، ولكن سيدته التي انشأت هذه القاعة والتي هو موظف عندها ليس لها هذا الحق

ولو أننا كنا على شيء من التقدير والشكر لهدى شعراوي لما كنا توالينا في تعيينها وزيرة ، وكان هذا العمل جديراً بأن يرفع اسم مصر إلى مصاف الأمم العصرية

ومما يؤسف له كثيراً أن المجلس البلدي الجديد للقاهرة لم ينص في قانونه على حق المرأة في الانتخاب له ، كأننا مصرون على أن نحرمها حقوقها الديمقراطية . وكذلك فعلت لجنة الدستور

وذكرت الصحف قبل أيام أن بعض الطالبات في الجامعة أردن أن يترشحن في انتخاب الاتحادات ، فرفض طلبهن ومن قبل ذلك

طلبت احدى آنساتنا المحاميات أن تلتحق بوظيفة في النيابة العامة فرفض النائب العام طلبها

وهذه المواقف جميعها تدل على أننا مصرون على أن نبقى أمة شرقية نقول بسيادة الرجل ونرفض المبادىء الديمقراطية التي تقول بها وتعيش على أساسها جميع الأمم العصرية

أن عندنا في الوقت الحاضر نحو الفي طالبة في الجامعات ، وعندنا نحو خمسة آلاف طالبة في المدارس الثانوية . وبدهي أن هذه التربية التي يحصلن عليها تؤهلهن لأن يدرسن مشكلاتنا الداخلية والخارجية أكثر مما يستطيع الفلاح المصري في حالته التعسة الحاضرة . ونحن نفقد مقداراً عظيما من الذكاء والوطنية والثقافة بحرمانها حق الانتخاب للبرلمان وللمجالس النيابية

★ ★ ★

وأثمن العواطف البشرية هو الحب . ولكن الحب يحتاج إلى التكافؤ . ولا يمكن لشاب أن يحب فتاة إلا إذا أحس أنها على مستواه الاجتماعي أو قريبة منه . فإذا احتقرنا المرأة وجعلناها دوننا في المقام الاجتماعي أفأننا باحتقارنا هذا ننزل بالحب إلى الحضيض بل نكاد نلغيه . ولا يمكن أن نقول عن الصعيدي الذي ينادي زوجته بقوله : « يامرة » أنه يحب زوجته هذا الحب الذي يحس به الرجل المستنير الذي عرف زوجته قبل الزواج واحترمها لمكانتها الاجتماعية وتربيتها المدرسية أو الجامعية .

أن الأول قد يشتهي زوجته ويستخدمها ولا يحس أنه يحتاج إلى أن

يتفاهم معها . أي ليس بين نفسيهما أنسة . أما الثاني فانه يجعل حبه تفاهماً بل هو يوقن أن هذا التفاهم أساس الحب بينه وبين زوجته

وهذه الاستهانة بالزوجة ، وهذا الاسراف في الطلاق ، وهذا الجموح إلى الزواج بثانية أو ثالثة ، بل هذا الحرمان للبنات في الميراث ، وأخيراً هذا النفور من منح المرأة حق الانتخاب والترشيح للبرلمان ، كل هذا برهان على أننا مازلنا شرقيين مثل الصين والهند واليابان قبل أن تتخلص هذه الأمم نفسها من هذه العادات الشرقية

أن عاطفة الحب سوف ترتفع في مصر حين تأخذ المرأة المصرية مكانها الاجتماعي لأنها ستحترم عندئذ . والاحترام أعظم ما يهيء للحب الشريف

كيف نصادق زوجاتنا

الصداقة ضرورية لكل انسان ، إذ أننا نجد من الصديق سلوى ومؤانسة وانحيازاً نحتاج إليها في حالي الضيق والسعة على السواء . ونحن نتخير أصدقاءنا عادة بحيث يتفقون معنا في الرأي ، أو يتكافأون معنا في الثقافة وأسلوب العيش . وبعيد أن نصادق من نختلف معه في كل من الأشياء

وكثيراً ما نتجنب حتى أقرباءنا بل أخوتنا إذا وجدنا أننا لسنا واياهم على وفاق في أسلوب العيش أو الرأي ، أو العقيدة ، أو الثقافة ، أو الدرجة الاجتماعية

وفي مصر حيث لا يزال الاتجاه العام يميل إلي تمييز الشاب على الفتاة في التعليم ، نجد أن التكافؤ الثقافي بين الزوجين معدوم وأن الهوة بينهما كبيرة ، ومن ثم تكاد تنقطع بينهما أسباب الصداقة

والرجل قد يعيش مع زوجته نحو أربعين أو خمسين سنة . وليس هذا العيش سهلاً إذا لم تكن هناك صداقة تربطهما . ولذلك غالباً ما يتجه الرجل إلى خارج بيته حيث الأصدقاء من الرجال يقاعدهم في المقهى ، أو في النادي ، ويجد فيهم بديلاً من الزوجة

وفي أوربا تتعلم المرأة كالرجل تقريباً ، ولذلك يتكافأ الزوجان في الثقافة ، فتصبح المرأة وإذا بها ليست زوجة فحسب ، بل صديقة لزوجها أيضاً . يشتاق كل منهما إلى رؤية آخر ، ومجالسته ومحادثته ، ويخرجان معاً ، ويقرآن الكتب التي يشتريها أحدهما معاً ، ويناقشان موضوعاتها معاً

وإلى أن نصل إلى هذه الحال ، أي إلى أن نسوي بين تعليم الشاب والفتاة ، بلا تفرقة أو تمييز ، نحتاج ، نحن الأزواج ، أو المرشحين للزواج ، إلى أن نرفع زوجاتنا إلى مصفنا في الرأي والمعرفة والثقافة ، وليس هذا بالأمر الشاق كما يتوهم القاريء .

والمهندس مثلاً لا يحتاج إلى تعليم زوجته دقائق الهندسة الآلية أو الكيماوية . والمحامي ليس بحاجة إلى أن يشرح لزوجته فقه القانون الروماني . والطبيب لا يحتاج إلى أن يدرس لها الفسيولوجية . ليس هذا ضرورياً وان كنا قد رأينا أزواجاً استطاعوا أن يشركوا زوجاتهم حتى في هذه الأشياء الفنية !

لسنا في صداقتنا لزوجاتنا ، نحتاج إلى كل هذا وانما نحتاج إلى أن نتحدث اليهن عن شؤوننا المهنية ، حتى نثير استطلاعهن ونبعث فيهن الشوق إلى التعرف على أعمالنا

وأولى من هذا وأسهل أن نجعل الجريدة ، والمجلة والكتاب بعض أثاث البيت ، نشتريها في عناية ، ونختار منها الأحسن والأنفع ونقرأها مع زوجاتنا ونناقش ما فيها من شؤون سياسية أو اجتماعية . وبهذه الوسيلة يتقارب الزوجان تقارباً ذهنياً ، ويتفقان على مبدأ في الرأي والعقيدة

وقد يقول القارىء أن الحديث عن السياسة أو قراءة الجريدة ليس كل شيء في التكافؤ الثقافي الذي يؤدي إلى الصداقة . ولكن هل هذا القول صحيح ؟

أليست السياسة كل شيء في أيامنا هذه ؟ أليست هي التي تسيطر على حديثنا وتثير اهتمامنا ؟

والكلام في السياسة هو في عصرنا هذا حديث في العلوم ، والاجتماع ، والاقتصاد معاً . فالقنبلة الذرية ، والغلاء والاستعمار ، والانقسام الديني في الهند ، وأثمان البترول ، والتأمين من المرض ، والطيران ، واضراب العمال ، كل هذا وغيره قد أصبح من صميم السياسة

ومتى شرعت الزوجة ، التي لم تلق عناية كبيرة قبل الزواج بتعليمها ، في قراءة الجريدة مع زوجها ، ووجدت منه المفسر والموضح الذي يستخلص لها العبرة ، فلن تمضي سنوات حتى تكون على تكافؤ يكاد يكون تاماً مع زوجها ، نوراً وعرفاناً ورأياً واطلاعاً . وعندئذ تسعد هي بصداقته كما يسعد هو بصداقتها

أعرف رجلين يختلفان في المهنة وأسلوب العيش تزوجا اختين على

قدر متساو من التعليم . وهو تعليم ابتدائي قليل النفع سريع الزوال . ولكن أحد الزوجين جعل زوجته شريكته في المجلة والجريدة . والآخر لم يبال هذا الاشتراك . وقد مضت عليهما إلى الآن نحو ١٥ سنة ، فماذا كانت النتيجة ؟ الأولى تقرأ وتناقش وهي صديقة زوجها ، عندما يقعد اليها يجد أن الحديث يرتفع من القيل والقال إلى موقف ترومان وايزنهاور ، واتجاه الوفد في المعاهدة ، وموقف روسيا والقنبلة الذرية ، والفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين في الاستعمار الخ

أما الأخرى فقد نسيت القراءة تماماً ، ولذلك هجرها زوجها إلى المقهى ، وأخذ يعيب عليها جهلها !

ولا شك أن المدارس في المستقبل ، ستغنينا عن هذا الجهد عندما تعنى برفع مستوى الزوجة إلى مستوى الزوج بمحو الفروق التعليمية بين الجنسين . ولكننا الآن في حاجة لأن يعنى كل زوج منا بزوجته حتى يعلمها ، ويثير اهتمامها ، ويوقظ ذهنها . وخير الوسائل الموقتة لذلك هي الجريدة والمجلة . والمجهود الذي يبذله الزوج في هذا السبيل ليس مجهوداً ضائعاً . وحسبه أنه بذلك يكسب صداقة زوجته ، تلك الصداقة التي تفسح له آفاق السعادة الزوجية والهناء العائلي

مجتمعنا الانفصالي

نحن أقل مسرات ومباهج من الأوربيين لأن هؤلاء يلقون الدنيا في صراحة أكثر منا . ونحن بالمقارنة اليهم نوارب ونداري كأننا ملوثون بتهمة نخشي أن تفتضح . يعيش رجالنا منفصلين من النساء ، لهم مجتمعهم الخاص ومسراتهم الخاصة فإذا كانت هناك علاقة بين الجنسين فهي ليست علاقة الانسة والرفقة والزمالة الاجتماعية كما هي الحال في الأمم المتمدنة . وإنما هي العلاقة الفطرية البدائية التي قد ترتقي أحياناً إلى انسة اجتماعية محدودة بالبيت . ولكن ما أصغرها وأضيقها

كل هذا لأننا نعيش في مجتمع انفصالي ، الرجال ينفصلون من النساء

والآثار التي يخلفها هذا الانفصال لا تقدر . فان الزمالة الزوجية التي تعد شرطاً ضرورياً للحياة السعيدة بين الزوجين ليست من المعجزات التي تباغتهما منذ العرس . لأن هذه الزمالة تحتاج إلى مرانة

قد حرمها شبابنا وفتياتنا لأننا حرمنا الاختلاط بينهما قبل الزواج . فأصبح كل منهما منكفئاً على نفسه له عقلية خاصة واحساسات نفسية خاصة كأنه مخلوق من كوكب آخر . ولذلك يلتقيان بعد الزواج وهما غريبان يحتاج كل منهما إلى مجهود جديد للتوفيق في الحياة المشتركة الجديدة

والأوربيون يختلطون . يتعلمون وهم صبيان في مدرسة واحدة وأحياناً يتعلمون معاً أيضاً في المدارس الثانوية . أما الجامعات فالتعليم على الدوام مشترك لا ينفصل فيه جنس عن آخر . وهذا إلى الاختلاط بالضيافة التي لا تنقطع . ولذلك ينشأ الشبان والفتيات على دراية ومعرفة فإذا دخلوا في بيت الزوجية كان دخولهم على نور وهدى وليس بمثابة الكشف عن أرض مجهولة كما هي الحالة الاسيفة عندنا

ومنع الاختلاط بين الشبان والفتيات يعقب آثاراً من الأمراض النفسية يعرفها الدارسون لهذا الموضوع . لأن هذا الفصل يجتح بالشاب أيام المراهقة إلى الاستسلام للخيال الذي لا ترده ولا تحده حقائق الاختلاط ولمس الواقع . فهو ينتقل من خيال إلى خيال ويشطح ويتطوح إلى أن يجد نفسه يوماً وقد بعد إلى منأى تخصب فيه الشذوذات الجنسية التي يشق عليه ، وأحياناً يستحيل أن يتخلص منها حتى بعد الزواج

ونحن الرجال نحتاج على الدوام إلى الاختلاط بالجنس الآخر منذ نولد إلى أن نموت . لأن أقل ما يقال في تبرير هذا الاختلاط أنه هو الوضع الطبيعي الذي يجب ألا يناقضه وضع اجتماعى.والشاب

المختلط ، زيادة على أن غرائزه تبقى سليمة بعيدة عن الشذوذات ، يرقي شخصيته بالاختلاط بالجنس الآخر . إذ هو يعنى بلباسه ولغته وصحته لأنه يحب أن يبدو في أحسن ما يستطيع حتى يجلب الاعجاب والرقة من الجنس الآخر . بل هو يرقي ذهنه ويربي حواسه لهذا الغرض أيضاً . ونحن نستطيع بالفراسة السيكلوجية أن نعرف الشاب المنفصل الذي لم ترتق نفسه وحواسه وذهنه بالاختلاط الجنسي .

وأول ما نجد فيه اهمالاً في هندامه إذ هو لا ينتظر اعجاباً ولا يتكلف عناية لجلب هذا الاعجاب من الفتاة . وهو يؤمن بالشهوة لا الحب . لأنه لم يسامر قط فتاة ولم يعرف قط أن للفتيات ميزات روحية ونفسية وثقافية وذوقية وانهن يمتزن أيضاً بالشجاعة والتضحية والشرف

ومثل هذه الحال التعسة تكون أيضاً عند الفتاة المنفصلة مع الاختلاف الذي تقتضيه ظروفها . بل هي اتعس من الشاب لأن حبسة البيت أسوأ أثراً هنا . والشاب مع انفصاله لا يحبس في بيته . ولذلك تفقد الفتاة حيويتها ويستولى عليها جمود ينقص أن لم يلغ جاذبيتها . مع أن مواهبها الطبيعية في الجمال قد تكون كبيرة جداً . ثم تسودها عقلية المنع والانكفاف . لأن الإحجام المادي يتشعع من بؤرته في البيت إلى ألوان من الإحجام الذهني والنفسي : « يجب ألا تنظري ويجب ألا تقرئي ويجب ألا تعرفي » الخ

ولعلي أكون قد بالغت في وصف المساوىء التي تعود من الانفصال بين الجنسين لأن الحدود والسدود تحطمت إلى حد ما

ولكن يجب ان نسلم انها مع الأسف لا تزال قائمة في كثير من أوساطنا . وهي أحياناً ، مع تحطمها في الواقع المادي ، لا تزال قائمة في بعض الأذهان والنفوس

يجب أن نعد الاختلاط جزءاً من تربيتنا العامة وان ندعو إلى التعليم المختلط في المدارس الابتدائية وإلى تشجيع الضيافة الراقية بل أيضاً إلى غشيان المطاعم والمقاهي العامة مختلطين

وعندما ينتقل مجتمعنا من حال الانفصال إلى حال الاختلاط سوف نحس أننا أمة متمدنة . وسوف يربينا الاختلاط ويحدث بيننا زمالة واحتراماً ، ثم يؤدي إلى الحب . أجل هذا الحب المكشوف الصريح الشريف الذي لا يحتاج إلى اختلاس النظر من ثقوب الأبواب وخروم الاستار

الحياة الفنية للمرأة

كل ما قلناه عن الرجل في الفصول السابقة ينطبق أيضاً على المرأة وقد نبهنا عن ذلك في كلامنا عن العائلة والمجتمع . ولكنا نحتاج مع ذلك أن نعالج الحياة الفنية للزوجة لأننا في مصر قد ورثنا من التقاليد أخطاء كثيرة ألغت المرأة من مجتمعنا وكادت تغيبها عن احساسنا . وقد كوفحت هذه التقاليد بتعميم حرية المرأة ، وانتشار المدارس إلى حد بعيد . ولكن لا يزال لهذه التقاليد رواسب إذا لم ترفع إلى احساسنا الذهني فإنها لا تزال تصبغ عواطفنا وتؤثر في حياة المرأة

والحياة الفنية للمرأة تقتضي أن تعمل كالرجل . فتحترف حرفة ما ترفعها من الأنثوية إلى الانسانية وتربيها طوال العمر وتحملها على النمو والايناع النفسي ، كما تقتضيها الاتصال بالرجال . ونحن الرجال لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا منفصلين عن المجتمع قد حرمنا الحرفة لأننا نعرف أننا في هذه الحال نسقط سقوط اليأس الذي لا ننهض منه . ذلك لأن الحرفة والمجتمع يربياننا وهما من أكبر الدوافع لارتقائنا الذهني والنفسي بل والجسمي

وقليل من المقارنة بين امرأة لزمت البيت وحرمت المجتمع ، وأخرى عملت في حرفة واختلطت بالمجتمع ، مدة عشر سنوات مثلاً ، يوضح لنا مقدار الفرق العظيم بينهما . فان قيم الحياة إلى حد عظيم قد ألغيت عند الأولى ، بينما هي قد روعيت عند الثانية . ولذلك بينما تركد الأولى وتسمن وتترهل لقلة حركتها ، ولضيق آفاقها الذهنية والنفسية ، تنشط الثانية في عملها وتستبقي نحافتها وعضليتها وتتسع آفاقها الذهنية والنفسية

وليس لأحد منا أن يؤمل في القريب ان تستوي المرأة بالرجل فإنها لم تصل إلى هذه الحال في أوربا وأمريكا إلى الآن . ومع أن قوانين الدول هناك تنص على المساواة فان قواعد المجتمع تأبى هذه المساواة . وفي مصر لا تزال الحرفة مكروهة عند المرأة وكثيراً ما تخرج منها عندما تلوح لها الفرصة للزواج كما نرى في بعض المعلمات مثلا . ولذلك فاننا عندما نعالج مركز المرأة في مصر نتجه إلى البيت كأنه كل شيء . وهو في وضعها الاجتماعي القائم عندنا ، يكاد يكون كذلك . وانما الذي ننساه هو أن البيت للمرأة وليست المرأة للبيت ، أي يجب أن يعد البيت لراحتها ورقيها وسلامتها ولا يضحى بها من أجل الطبخ والكنس والغسل فيه

والبيت في مصر كثير الأعباء مرهق التكاليف كثيراً ما يشبه الورشة في ارهاقه وتعدد واجباته الصغيرة . كما لا يزال المطبخ والمغسل ورشتين صغيرتين لا ينقطع العمل منهما طوال النهار وبعضاً من الليل . وربة البيت مضطرة إلى الاشراف عليهما إذا لم تباشر بنفسها العمل فيهما . وهي في كلتا الحالتين تقتطع من وقتها وفراغها

ما كان أحرى أن تنفقه في ترقية شخصيتها بالدراسة والاختلاط والانتفاع المثمر بالفراغ

وتستطيع المرأة المصرية أن تنتفع باختبارات المرأة الأوربية هنا فإن هذه تخص يوماً أو يومين للخروج مع زوجها وأولادها والغداء أو العشاء في المطاعم . كما أنها تخص يوماً أو يومين في الأسبوع لتناول الأطعمة المعلبة التي تستغني بها عن الطبخ . والخروج إلى المطاعم يتيح الاختلاط كما أن اقتناء العلب العديدة الوفيرة للأطعمة يتيح الفراغ الذي تستخدمه ربة البيت في تثقيف ذهنها أو في أي استمتاع آخر

ولذلك ارتقت بعض المطاعم في أوربا حتى ليصح أن يقال أنها ليست لتزويد زائريها بالطعام فقط . إذ لا يخلو مطعم منها من جوقة موسيقية ، كما أنها في ترتيب موائدها واختيار آنيتها وتزيين جدرانها والتأنق في الطبخ تبلغ القمة . وتناول الطعام فيها ليس لتوخي الشبع ولكنه قبل ذلك متعة فنية أنيقة . وكثيراً ما تعود الزوجة من المطعم وقد درست درساً نافعاً في طبخ أحد الألوان أو ترتيب المائدة ، وهذا إلى فوائد أخرى في الاختلاط بالأصدقاء أو الاستماع للموسيقا

كما أن الأطعمة المعلبة تتنوع وتتعدد إلى حد لا نتخيله في مصر حيث نكاد نقتصر من هذه الأطعمة على السردين . فانهم في أوربا وأمريكا يعلبون جميع اللحوم والخضروات والأسماك فتستطيع ربة البيت أن تحضر طعام اليوم كله دون أن تحتاج إلى طبخ . بل أن كيزان الذرة الخضراء نفسها توضع في علب . وزيادة على هذا تباع الفراخ منظفة فلا تحتاج إلى عناء الذبح والتنظيف في البيوت كما هي

الحال عندنا حيث نشتري الفراخ حية وتذبحها ونحيل المطبخ بريشها واحشائها إلى مزبلة تجذب الذباب الذي يتفشي بعد ذلك في الغرف الأخرى من البيت

وإذا شئنا الترفيه عن المرأة المصرية في البيت ، حتى تجد الفراغ الذي تحتاج إليه كي ترقي شخصيتها وتنير ذهنها وتوسع آفاقها ، فاننا يجب أن نعاونها على ذلك بغشيان المطاعم والاعتماد على الأطعمة المعلبة واحالة الغسل الى المغاسل كما نحيل الكي إلى المكاوي . وبهذا تخف أعباء البيت التي ترهق في الوقت الحاضر آلافاً من نساء الطبقة المتوسطة

وبالطبع لا ننسى هنا كثرة الأولاد أي الإسراف في التناسل الذي يرهق الأمهات ويستنفد كل مجهودهن بحيث لا يبقى لهن من القوة ما يتوفرن به على عمل آخر . وقد توافرت وسائل الضبط للتناسل كما أصبحت مأمونة . ولا عذر للزوجين في اهمالها لأن هذا الإهمال سينعكس أثره في الزوجين اللذين سوف تصدمهما حقائق الحاجات الاقتصادية فيعجزان عن توفير الصحة والتربية للأولاد بل أيضاً لهما . لأنهما هما أيضاً في حاجة إلى صحة وتربية

وعلى ذلك نقول ان الحياة الفنية للمرأة ، إذا لم تكن تعمل مستقلة ، أي طبيبة أو معلمة أو ممرضة أو تاجرة ، تحتاج إلى الاقتصاد في عمل البيت من ناحية ، وفي عدد الأولاد ، من ناحية أخرى

العادات

نحن نعيش بالعادات . عادات العمل وعادات الفكر . ولكل منا عاداته الخاصة ، الحسنة أم السيئة ، في المشي والحديث والأكل والتفكير ، أي أنه يتخذ أسلوباً أو أساليب في كل ما يعمل . وهذه الأساليب تلصق به طوال عمره

وقد كان ولنجتون يقول عن العادة أنها ليست طبيعة ثانية كما هو المثل الجاري إذ هي تزيد على الطبيعة عشر مرات

وعادات التفكير لا تقل خطورة عن عادات العمل . فان الناس يختلفون تفاؤلاً أو تشاؤماً بالدنيا وصروفها لعادات فكرية تعودوها لا يطيقون التخلص منها . وكلنا يعرف ذلك الشاب الذي يتسم بالتهكم أو المزاح فيثقل علينا باستصغاره لكل ما نفعل أو يملأنا طرباً بنكاته ونوادره . وهناك بالطبع ذلك الآخر الذي تعود الوقار فيكاد يجهل الضحك . ثم هناك آخرون قد تعودوا الانتقاد أو حتى المنافرة فهم على الدوام في موقف المعارضة والمناقضة . ثم هناك ذلك الذي تعود

المخاصمة فلا نعرف كيف نحادثه لأننا نتوقع منه كل وقت لوماً لنا في غير ما نستحق أن نلام عليه

وجميع هذه الأخلاق عادات ذهنية يتعودها احدنا ، في الغالب ، أيام طفولته فتثبت ولا تتركه طوال حياته

ولكن كما تثبت العادة السيئة كذلك تثبت العادة الحسنة . ولذلك يحتاج كل منا ، كي يعيش في اقتصاد ذهني وجسمي ، وفي ملاءمة بينه وبين الوسط الاجتماعي أو المادي ، أن يتعود العادات الحسنة أي عادات الأكل الصحي والدراسة الدائمة والعمل المجدي والتسلية المرقية والمعاملة أو المعاشرة الاجتماعية التي تنأى عن الشر والعبث

وميزة العادات ، زيادة على أنها تثبت وتلصق بنا ، أنها تجعل العسير من الأعمال سهلاً محبباً إلى النفس . وصحيح أن عاداتنا العامة التي تحرك غرائزنا وتنشط عقولنا تأتينا عفواً ، بعضها أيام الطفولة وبعضها بعد ذلك . ولكن ليس معنى هذا أننا نعجز عن تكوين العادات الحسنة أي نكونها بارادتنا وعلى معرفة تامة بمنفعتها وضرورتها لنا

والهدف الذي نقصد إليه من تكوين العادة ، أن نقتصد في مجهودنا حتى نستطيع أن نؤدي مقداراً من العمل أكبر مما كنا نؤديه قبل أن تتكون العادة وتستهلك من قوتنا أقل مما كانت تستهلك

والرجل الحكيم لا يترك نفسه يعيش عفواً كأنه مسوق بالظروف والصروف . إذ يجب أن يعيش قصداً بأهدافه وعلى تقدير لمواهبه وكفاءته واستغلال لهما بما يجعل حياته مجدبة ان لم تكن سعيدة . وهو

محتاج ، لهذا السبب ، إلى أن يتعود العادات الحسنة التي تعاون على رقيه وتطوره

وأول ما نحتاج إليه في تكوين عادة ما أن نقتنع بفائدتها وضرورتها لنا . وهذا الاقتناع ليس محض الميل والاتجاه . إذ يجب أن نعين الفوائد التي تعود علينا كتابة ، مع التفصيل الذي ربما يحتاج إلى مراجعة وتفكير وتنقيح . أي أننا يجب أن نحس أننا لم نأخذ بهذه العادة إلا بعد حكم قد وصلنا إليه عن دراية ويقظة . واننا بنينا هذا الحكم على أسباب قوية وتحقيقات دقيقة قد اقتضاها « تصميم » حياتنا

فإذا اقتنعنا بفائدة العادة شرعنا فيها . وحسبنا من هذا الشروع ان نعمد إلى يومنا ، أي هذا اليوم ، إلى ممارسة العادة . ثم نجدد العزم كل يوم على هذه الممارسة إلى أن يؤدي التكرار إلى ثباتها . ولابد من المثابرة بحيث لا يفوتنا يوم إلا ونحن في ممارسة لها

وواضح أننا عندما نختار عادة يجب أن تكون في مستطاعنا حتى لا تتجاوز طاقتنا . ثم يؤدي عجزنا إلى تركها

مثال ذلك : نفرض أن أحدنا قد بلغ الثلاثين وهو يجد أنه مقصر في الدراسة وان زملاءه قد سبقوه فصار لهم مقام وحققوا كسباً ونالوا أماني لم يحصل هو عليها لتقصيره في الدراسة . وانه ينوي أن يتعود عادة الدراسة

فأول ما يعمد إليه أن يعين هذه الدراسة ويوضح الأسباب التي تدعوه إليها . ويوضحها كتابة مع التفصيل والمراجعة حتى يقتنع بضرورتها

ثم يبدأ اليوم ، في هذه الدراسة

ثم يثابر . والمثابرة هنا تعني أنه لا ينقطع

وهو محتاج إلى تشجيع . وقد لا يجد هذا التشجيع من اخوانه . وعليه عندئذ أن يسجل نجاحه يوماً بعد يوم لأن هذا التسجيل يوضح له الخطوات التي خطاها نحو تحقيق أهدافه . فهو يزيده حماسة ونشاطاً واقبالاً

وقد ذكرنا الدراسة باعتبارها احدى العادات التي يجب على الشاب أن يتعودها . ولكن العادات الحسنة كثيرة . لأننا محتاجون إلى عادات الرياضة البدنية ، والمحادثة بكلمات كريمة ، والاعتدال في الطعام مع التأنق الذي يقتضيه التمدن ، وأمثال ذلك مما قد تصغر قيمته عندما نتأمله عملاً منفرداً ولكن تكبر قيمته عندما نتأمله عادة متكررة . إذ قد يسهل علينا أن نتحدث إلى أحد الناس في لغة كريمة وكلمات أنيقة إذا قصدنا إلى ذلك وتكلفنا . ولكن لا يسهل أن نفعل ذلك مع جميع الناس على سبيل العادة عفواً وسماحة . وكثير من النجاح يعزى أحياناً إلى مثل هذه العادات

لقد عرفت رجلا نال منصباً عالياً كان يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومعارف عميقة لم تكن في طاقته . ولكن هذا النقص قد داراه سلوكه الشخصي . /أي في الكلمة والإيماءة ، وكراهة بل نفور من العيب إلى أحد . ومواظبة على العمل . ومعونة عاجلة لجميع أصدقائه . وجميع هذه العادات أصبحت جزءاً من جهازه النفسي والذهني فلم يكن يحس أية مشقة في القيام بها . وكانت هي السبب الأول في نجاحه وبلوغه منصباً من أكبر مناصب الدولة

التخلص من العادات السيئة

العادة كالنار إما خادمة حسنة وإما سيدة مؤذية ، وكثيراً ما تتسلط علينا عادات تتملكنا وتستبد بنا فنؤديها خاضعين ونحن على مضض من إلحاحها وعلى معرفة بما تبدده من قوانا وحيويتنا

وكثير من عاداتنا السيئة يعود إلى إهمال أبوينا في تربيتنا حين عودونا التدلل وكراهة الاستقلال أو الخوف والأحجام أو حتى كراهة بعض الأطعمة . فإني أعرف رجلا بلغ الستين ولم يذق الجبن في حياته . وكراهته لهذا البروتين الثمين ترجع إلى أيام طفولته حين أهمل أبواه تعويده تناول هذا الغذاء . وقد خسر كثيراً في صحته وماله بهذا الحرمان . كما أن هناك ناساً قد بلغوا الأربعين أو الخمسين إذا رأيناهم يأكلون اشمأززنا من الأسلوب الذي يتبعونه بالعادة في تناول الطعام ومضغه

واتجاهاتنا وميولنا هي عادات كامنة توجهنا نحو الجد أو المزاح . ونحو التشاؤم أو التفاؤل . ونحو الاقدام أو الأحجام ، وهي عادات

نفسية لا تختلف عن عاداتنا الجسمية، في غسل الوجه أو السير في الشارع أو التحية لصديق . وهي ، أي هذه العادات النفسية ، تعين سلوكنا وتصرفنا

وبالطبع هناك عادات خطرة كالتدخين أو الشراب أو أسوأ من هذا ، كالمخدرات والشهوات الشاذة . ونحن لا نعالج هنا هذه العادات إذ هي تحتاج إلى تحليل نفسي كي نصل إلى الأزمات والتوترات التي أحدثت الالتجاء إلى هذه العادات فراراً من الواقع المؤلم

وقد يكون التدخين أخفها فلا يحتاج إلى تحليل . لأن الأغلب أن الشاب يقع في هذه العادة لرغبة ساذجة في تكوين شخصيته وتأكيد رجولته . ولكن ادمان التدخين يدل على توتر نفسي يحتاج إلى التحليل

وفي ابطال العادة ، كما في تكوينها ، نحتاج ، قبل كل شيء إلى الاقتناع . وهذا الاقتناع يحتاج إلى توضيح العناصر كما لو كنا ندافع عن متهم ونوضح عناصر البراءة . وذلك كي ينبني الاقتناع على أسباب وجيهة. فإذا تم لنا ذلك فلنشرع في التنفيذ ونقنع منه بيوم واحد . يوم واحد

فالمدخن الذي ينوي ابطال التدخين يحتاج إلى ايضاح الأسباب كتابة ، لهذا الابطال ، ثم عليه أن يقرر العزم على الامتناع يوماً واحداً لا أكثر . فإذا تم له هذا اليوم فعليه أن يقرر هذا اليوم وعليه أن يسجل هذا الانتصار ، كتابة أيضاً . ثم يجدد العزم على يوم آخر . وكلما مضى يوم ضعفت العادة وتراخت قبضتها على خناقه

ويجب على المدخن أيضاً أن يستعين بالوسط . أي يغير الشارع الذي تعود أن يشتري منه . أو لا يأخذ مؤونته إذا كان على قصد الابتعاد عنه أو نحو ذلك . ثم يجب المثابرة فلا يخرم يوماً يعود فيه إلى عادته لأن هذا اليوم وحده قد يفسد جميع أيام الحرمان السابقة أو يلغيها

وإذا وجد الشاب أنه مع ذلك عاجز عن ابطال العادة السيئة فعليه بالتحليل النفسي حتى يصل إلى الأصول الثابتة في كامنته « عقله الكامن » فيكشفها وينفضها في الهواء . وعندئذ يسهل الابطال

ولكن العادة تحدث في النفس شهوة ، وابطالها كظم لا يطاق . وكثيراً ما رأينا آثار هذا الكظم في مدمن الخمر حين يتأخر عن ميعاد شرابه . فانه يقلق في مكانه . وقد يرتعش أو يعرق أوا يغضب. وهذا لأنه كظم الشهوة للشراب ساعة أو أقل أو أكثر فقط ، فكيف الإبطال التام ؟

يجب على المدمن أن يأخذ بعادة أخرى قريبة أو مناسبة للعادة السابقة التي أبطلها حتى تجد شهوته المكظومة المنفس والمخرج كالقهوة بدل التدخين أو الألعاب الرياضية بدلا من القمار أو الطعام قبل ميعاد الشراب بربع ساعة مثلا حتى تمتلىء المعدة فلا يساغ الشراب كثيراً . وإذا لم تنجح هذه الوسائل للاقلاع عن عادة سيئة فيجب ، كما قلنا ، الالتجاء إلى التحليل النفسي . وإذ لم يكن هذا متيسراً فلا بأس من الاعتماد على ما يسمى « الانعكاس المعدول » أي ايجاد مركب نفسي سيىء كأن نحقن شريب الخمر بحقنة مقيئة قبل الشراب ثم نأذن له بكل ما يهوى من شراب كماً وكيفاً حتى إذا

جرع كاسين أو ثلاثاً ألفى نفسه في غثيان وقيء. فإذا اصبحا صار لا يشتهي الخمر الا وفي نفسه هذا الجزء من الغثيان فيكره الخمر. وهذا هو ما تفعله الأم مع طفلها الرضيع حين تحتاج إلى فطامه فانها تطلي الحلمة بسائل مر فيكره الطفل الرضاع لأنه يقرن المرارة إلى الحلمة

ولكن المرارة للحلمة، والغثيان وقت الشراب، كلاهما عمل سلبي أي يكف ويزجر. والحاجة تدعو هنا إلى عمل ايجابي يغري ويجذب. وهو عند الأم تقديم طعام سائغ للطفل. وكذلك يجب أن نقدم شيئاً للسكير له قيمة نفسية ترفيهية تقوم مقام الخمر. ولكل انسان ظروفه التي تعين العلاج. فقد يعالج أحدهم بالرفقة المنعشة مع أحد الأصدقاء وقد يعالج آخر باهتمامات لذيذة تملك نشاطه وتوجهه

وحياتنا كلها سلسلة من العادات الجسمية والذهنية والنفسية فإذا قصدنا إلى أن نجعل حياتنا فناً جميلاً فاننا نحتاج إلى تعود العادات التي تؤدي إلى الاقتصاد في مجهوداتنا كما نحتاج إلى عادات التأنق، نتأنق في لباسنا وطعامنا وتصرفنا، حتى نجعل الكيف يأخذ مكان الكم. فنطلب الكمال فوق الضرورة ونقصد إلى الجمال في كل ما نتوخى من وسائل أو غايات

ويجب أن نذكر أن العادة الحسنة تقينا من العادة السيئة لأنها تستغرق الوقت والجهد اللذين تحتاج إليهما العادة السيئة. فإني مثلا لم أعرف التدخين أو لعب الورق لأني شغفت بالقراءة منذ كانت سني ست عشرة سنة فالوقت الذي استغرقته القراءة حال دون توفير الوقت الذي كان يحتاج إليه التدخين أو اللعب

عادة القراءة

تحدثنا في بعض الفصول السابقة عن القيمة العظمى لعادة القراءة . ولكننا مع ذلك نحتاج إلى التوسع في ايضاح هذه القيمة . وهذا الكتاب الذي نتوخى فيه جعل الحياة فنية يجب أن يحوي فصلا عن القراءة . لأن القراءة وحدها تجعل الحياة فنية في الكثير من معانيها إذ هي ترفع القارىء من الاعتبارات المحلية ومن الضرورات المعيشية إلى قيم بشرية سامية وإلى كماليات وتأنقات ذهنية لا يحصل عليها الأمي أو ذلك القارىء الذي يحيل نفسه إلى أمي لأنه يكره القراءة

وفي أيامنا 'يعد توافر الكتب والمجلات والجرائد من أعظم انتصارات الحضارة العصرية . لأنه قد جعلنا ، بالقراءة المثابرة ، على دراية دائمة بعصرنا ودنيانا فاتسعت آفاقنا الفكرية والعاطفية وحفلت حياة القارئين باهتمامات جديدة ومتجددة لم يكن اباؤنا يعرفون شيئاً منها . فإذا لم تكن حياتنا أطول من حياتهم فانها ، على الأقل بالقراءة ، أعرض وأعمق منها

وواضح أننا نقصد هنا القراءة المنيرة المنبهة لا القراءة المظلمة المخدرة . فان هناك قراء وقارئات يشترون المجلة كما يشترون اللب أو اللبان للتسلية وقتل الوقت . كما أن هناك مؤلفين قد زودوا السوق « الأدبية » بهذه المخدرات التي تبنج العقل وتلغي الضمير واليقظة

ولكن القاريء الذي يعنى بحياته يأبى التخدير لأنه لا يحب أن ينسى أنه حي ، وهو يقرأ كي يزيد حياته حيوية وليس كي ينام ويتخدر . وهو يزداد بالقراءة سروراً واحساساً بالنمو . وقراءته دراسة مقصودة مرتبة على مراحل حياته كأنها البرنامج للنمو والتطور . والقارىء الذي يحس بعد سنوات من دراسته أنه لم يتطور يحتاج إلى المراجعة والتساؤل . لأن أغلب الظن أنه أساء في اختياره الكتب وانغمس في دراسات جامدة لا تبعثه على الرقي أو النمو أو التطور

والقراءة الجزافية سيئة وهي كالأكل الجزافي . لأننا نحتاج في الحياة الفنية إلى التنظيم والترتيب ووضع البرامج كي تتفتح الميادين الجديدة . فالرجل المستنير لا يرضى لنفسه هذه الأيام ان يعيش على هذا الكوكب دون أن يحاول الوقوف على ماهية الطاقة الذرية كما لا يرضى لنفسه أن يجهل نظرية التطور ، التطور الطبيعي والتطور الاجتماعي

وهناك عشرات من الموضوعات الحيوية التي لا يجوز لمستنير أن يهملها . وهي تستغرق الحياة كلها . بل أن المتعودين للدراسة يجدون أنهم في شكوى دائمة من قلة الوقت . ولذلك لا يعرفون السأم ، واهتماماتهم متعددة متجددة

والحياة الفنية تتجه نحو العناية بالفنون الجميلة قبل كل شيء أي

بالأدب والشعر والموسيقى والرسم وما إلى ذلك . لأن هذه الفنون تزيدنا تأنقاً فنتوخى الجمال في تصرفنا كما نتوخاه في بيئتنا . ولكن التعمق يقتضي الا يقف أحدنا من الدراسة موقف القارىء المطالع القانع بزيادة معارفه . إذ يجب أيضاً أن يشترك ايجابياً في ثقافة معينة تكون عنده كالبؤرة الأصلية التي تتشعع إلى ثقافات فرعية عديدة . وهو يحسن إذا مارس الكتابة عما يقرأ . يشرع أولاً في مراسلة بعض المجلات ثم يرتقي إلى كتابة المقالات أو القصص القصيرة ثم إلى التأليف إذا استطاع ذلك . ولكن يجب على كل حال أن يحاول الكتابة التي تزيده ارتباطاً بالثقافة وتحمله على زيادة البحث والاستقصاء لما يدرس .

وثم اعتبار آخر في قيمة القراءة أو الدراسة للحياة الفنية هي أنها أعظم الوسائل للاحتفاظ بشباب الذهن في الشيخوخة . فالشاب الذي تعود قراءة الجريدة والكتاب أيام شبابه ثم واصل هذه العادة في كهولته وشيخوخته يحتفظ بالكلمات ماثلة حية في ذهنه حين تتبلد العواطف فلا تحرك الذهن إلى التفكير والاهتمام بل حين تأخذ خلايا المخ في التدهور وتعجز الشرايين الدقيقة المتصلة بها عن تغذيتها وتنظيفها . ففي هذه الحال يرافق الشيخوخة نسيان للكلمات يؤدي إلى تعطيل للتفكير . ولكن عادة القراءة كل يوم تجعل الكلمات ، كما قلنا ، ماثلة . ومتي مثلت الكلمات مثلت الأفكار . فيبقي الذهن شاباً حياً وتعود الشيخوخة حافلة بالاهتمامات حتى ولو بلغنا التسعين أو المائة . وترى هذا واضحاً في جميع الأدباء أو العلماء الذين لم ينقطعوا عن الدراسة في شيخوختهم إذ في الوقت الذي يجد فيه غيرهم أن ذهنه قد تبلد وجمد ، أو حتى خرف ، يجدون هم أنهم لا يزالون

يقرأون ويكتبون كما لو كانوا في الشباب . وقليل منهم من يمتاز بشرايين طرية أو صحة عامة تختلف عن سائر الناس . ولكن ميزتهم الوحيدة هي الميزة اللغوية إذ قد احتفظوا بالكلمات فاحتفظوا بالمعاني أيضاً وبقيت الأفكار حية عندهم تحركهم إلى النشاط والاهتمام

ولذلك تعد القراءة خير ما نهيء للشيخوخة . ويجب ألا يقل الاهتمام بها عن الاهتمام بالصحة الجسمية.. بل ربما كانت هي أهم وأنجع لاستبقاء الحيوية عند المسنين . وعندنا من الأمثلة في مصر ما يبرهن على صحة قولنا . ففي هذا الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات (١٩٥٣) يعيش الأستاذ أحمد لطفي السيد في الثمانين وهو يستمتع بذهن يقظ وشباب عجيب لأنه لم ينقطع يوماً عن القراءة الجدية . فالكلمات (أي الأفكار) ماثلة في ذهنه تبعثه على اهتمامات ثقافية مختلفة وهو دائب البحث في اللغة والأدب والفلسفة والسياسة

ولذلك نحن على حق حين نقول أن صحة الذهن للمسنين أهم من صحة الجسم . ومداومة القراءة اليومية هي خير ما يؤدي إلى صحة الذهن . ونستطيع أن نذكر عشرات من المسنين استبقوا بالقراءة شباب أذهانهم . ولكنا نحب أن نغير كلمة القراءة ، فنقول : الدراسة . لأننا نقصد إلى الجد والترتيب ووضع البرامج للتوسع الذهني ، ولا نقصد إلى القراءة التي تقوم مقام أكل اللب أو مضغ اللبان

والبيت المتمدن في عصرنا هو البيت الذي يعرف أن أفخر ما فيه من أثاث انما هو الكتب ، لأنها غذاء نفوسنا وعقولنا التي هي أحق بالعناية من بطوننا . ومن عجب أن هناك من بعد نفسه متمتعاً بحياته

لأنه يأكل أفخر الأطعمة ويلبس أجود الملابس ولا يدري أن المتع البشرية السامية تتجاوز هذه الحاجات المادية إلى الوقوف على ذلك التراث البشري العظيم من مؤلفات أفلاطون إلى صلوات أخناتون إلى فلسفة بوذا إلى دراسة الكتب المقدسة إلى تواريخ الأديان وحياة القديسين إلى حقائق العلوم وتطورات الأمم وغير ذلك . وأي شيء من أثاث المنازل عند المليونير في المال ، يعادل الذهن المؤثث بالاختبارات والنظريات والأفكار التي تبسط تاريخ المستقبل فضلا عن تاريخ الماضي ! وأي شيء أثمن من تراث الفنون والآداب وبلاغة النثر والشعر مما خلف الأدباء والشعراء !

والقيم البشرية تعد على الدوام في المرتبة العليا بالمقارنة إلى القيم الاجتماعية . لذلك لا يمكن أن يقارن الثراء والوجاهة والمال وترف المنزل والمعيشة بالذهن الثري بالثقافة، المتمرن على التفكير ، اليقظ بالضمير العالمي . وذلك الشاب الذي يهمل تعود الدراسة ويبخل في شراء الكتب والمجلات ويؤثر عليها الرياش النفيسة أو اكتناز المال ، انما يبخس نفسه التي هي أولى من أي شيء آخر بالانفاق بل بالاسراف في الانفاق

البيت متحف

البيت من أخص الأشياء التي نملكها . فقد نقتني أسهم الشركات أو مئات أو آلاف الجنيهات ، أو قد نشتري ضيعة نستغلها ونعيش في احدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التي تربطنا بالبيت . لأن له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضي فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ونجد فيه الراحة والاستجمام بعد كد النهار . كما أننا نطبع عليه شخصيتنا لأننا نتخير له الأثاث ونتأنق في ترتيبه . ومن هنا هذا الحنين الذي نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع أو أشهر ولو كان هذا الاغتراب في مصيف أو مشتى للراحة والاستجمام

وعند بعض الناس يعدُّ البيت مأوى أو مطعماً . ولذلك سرعان ما يتركونه إلى المقهى أو النادي أو الحانة حيث يجدون رفاهيتهم مع الأصدقاء أو لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا في الغالب على حال سوية نفسية ،إذهميكظمون أشياء من علاقة زوجية سيئة إلى

قلق اقتصادي أو حرفي أو نحو ذلك . ولفرارهم من البيت معنى رمزي يسهل تفسيره بالتحليل النفسي

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » أي أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الأولى التي أقتضته . ولكن الانسان في طورنا الحضاري لا يقنع بالضرورات إذ هو قد سما إلى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت أكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحنا في فصل سابق بأن يجنح الزوجان من وقت لآخر إلى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس إلى حيث تغسل بالأجر بدلا من احالة البيت إلى ورشة للغسل والطبخ طوال اليوم

والوضع الاجتماعي القائم يجعل البيت المكان الطبيعي للمرأة . وليست الحال كذلك للرجل . ولكنا نبالغ في تأكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قد خلقت للبيت . وليس العكس . وهذه المبالغة تنتهي بأن نجعل من البيت محبساً لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعي الذي يجب أن تدخل غماره وتتأثر به وتؤثر فيه . إذ هي قبل أن تكون « ربة بيت » ، انسان ، له مركزه الأكبر في هذه الدنيا قبل مركزه الأصغر في البيت

وهناك فرق بين السرور والسعادة . الأول مادي بشأن المواد التي نقتنيها ونستمتع بها . والثانية فكرية بشأن الغايات والمثليات . ولكن ليس شك في أن أقرب المسرات إلى السعادة هو الحياة العائلية السامية . لأن البيت مادة وفكرة أي أنه مأوى ومطعم ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية ، تهدف إلى مثليات وتحقق أماني

كثيرا ما تحملنا على أسمى المجهودات . والبيت أيضاً يمتد بنا إلى المستقبل عن طريق الأبناء

والبيت السامي العصري هو معهد حر يجد فيه أعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النبرة في ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية وأخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذي تتألف منه الأمة . وكل عناية بالبيت انما هي في النهاية عناية بالأخلاق الحسنة والسلوك البار لأن الأطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والأوزان التي تلقوها في البيت أيام طفولتهم

ثم نحن نعيش في البيت نحو سبعين سنة أي نعيش هذا القدر بأجسامنا، ولكننا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لأننا نحس نفسياً أن عائلتنا منا وأن حياتنا مندغمة في حياة أفرادها ، سلفا وخلفا . ولذلك يمتد احساسنا للبيت إلى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا ، وهذا الاحساس يجعلنا نستهين بأي مجهود لترقية البيت

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التي نلبسها على قد قامتنا ، نعنى بتفصيلها حتى تتخذ قسمات أعضائنا مع ما قد يكون بها من نقص . ولذلك نحن نؤثر البذلة التي فصلها الخياط على بذلة جاهزة قد أخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد

ويعد البيت لهذا السبب « مركبا » نفسيا والحنين إليه أحد مظاهره . وقد وجد البيت لذلك حرمة في كثير من الأمم المتمدنة . فلا يجوز للدائن بيعه أو بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذي يحمله صاحبه . كما قد أجازت الأمم امتلاك المسكن الخاص في المبنى العظيم الذي قد

يحوي عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعاً لهذه الخصوصية التي تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لأنها لحظت أن للبيت أثراً تقويمياً للأخلاق . فكما أن المتزوج أقل جرائم واستهتارا من العزب لارتباط الأول بزوجته ، كذلك صاحب البيت أقوم أخلاقاً ممن لا يملك بيتا لمثل هذا الارتباط

وفن الحياة يقتضينا أن ننظر إلى الحياة نظرة فنية فنختار الأثاث في دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف في هذا الاختيار . لأن العرف بطبيعته طراز تعميمي . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والانفراد . والبيت يتسع للاتجاه الفني حتى يعود بالتأنق متحفاً . وكثير من البيوت التي امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولكنها مع الأسف متاحف قد أسيء فيها الاختيار . حيث أخذت الأبهة المطهمة مكان الفن الأنيق .

ولكن مع ذلك يجب أن نعترف أن الثراء في أيامنا يستطيع أن يجذب إلى البيت أفخر الأثاث الذي يضع تصميمه ويرسم مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن يجعلوا الفن سائداً في بيوتهم فضلاً عن احالتها إلى متاحف

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الأغنياء ولا يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا في سائر الأثاث أو بالأحري معظمه . ونقول في « معظمه » لأن كثيراً من الأثاث الغالي في الثمن لا نجد فيه غير الابهة السخيفة مع القبح العظيم لأن الذين صنعوه قصدوا إلى كثرة النفقات التي تبرز وفرة المال عند المقتنين لهذا الأثاث دون الالتفات إلى التأنق الفني

نذكر من هذا سريراً رأيناه من النيكل له قبة كأنه اريكة جنكيزخان أو عرش تيمورلنك . وكل ما فيه من ميزة أنه يباع ببضع مئات من الجنيهات

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبيهات منجدة ومناضد ومرايا متعددة حتى ليدخل منظرة الضيوف فيحس كأنه في قاعة أثاث قد عرضت أشياؤها للمزاد ، لأن الوفرة الثرية قد أخذت مكان الاقتصاد الفني

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لا يتوافر لغير المتوسطين المدبرين الذى يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقاً إذا جعلنا همنا في جمع الأثاث ممتداً على سني العمر ، أي لا نشتري أثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف في بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لأننا حين نفعل هذا نجمع الأثاث في عجلة وفقاً لطراز العصر أو السنة . وقد يكون طرازاً سيئاً أملته نزوة وقتية زائلة . وانما يحسن أن نختار الأثاث قطعة بعد أخرى مع التغيير الذي يقتضيه ارتقاؤنا الفني على مدى السنين

ويجب أن نقتني أجود الأثاث فلا نتسامح في الجودة والقيمة الفنية . وهذا ميسور ما دمنا لانزحم أنفسنا ونرهق جيوبنا في شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك نجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الأثاث . ويعود البيت متحفاً جميلاً يحوي أفخر ما أخرجته حضارة فرنسا والصين والمانيا ومصر وغيرهن

وإذا كان رب البيت أو ربته على شيء من ثقافة معينة استطاعت

أن تجعل البيت متحفا لثقافتها . وكثيرا ما يدخل أحدنا بيتا لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التي اكتشفها من أحجار أو محار أو معادن أو أحياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لا يتفق لكل منا

ولكن الشيء المهم الذي نقصد إليه أن يجد البيت منا عناية فنية في تأثيثه . وأن ننظر إليه كأنه متحف عائلي يجمع طرف الجدود والأحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة فقط بل فكرة أيضا

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية حميمة يحس بها أعضاؤه فيما يشبه المؤامرة . ذلك أن لهم أسراراً وأهدافاً وأساليب يتفقون عليها في مجتمعهم الصغير ولا يفشونها لغيرهم . وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلي

ولكن البيت يجب الا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية . ومهما نمتدح ارتباط الأبناء بالآباء والزوج بزوجته ، ومهما يكن الجو العائلي من حيث التعلق الحميم بين أعضاء البيت ، فان البيوت تحتاج إلى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيادة . والمبالغة في الارتباط العائلي هي شطط الفضيلة ، فضيلة التعلق العائلي التي تعود رذيلة

ولكن فرد منا حياة سرية أو كالسرية كأنها العقل الكامن في النفس يوجهنا من حيث لا ندري ، ولكل منا أيضا حياة اجتماعية علنية كأنها الضمير الذي ينتقد ويحاسب ويراجع

والحياة السوية هي تلك التي تصالح بين العقل والضمير وتوفق بينهما . ففي البيت نحن نختمر ونتهيأ . وفي المجتمع نحن نتكشف ونباشر . ويجب لذلك أن نعنى بالضيافة والزيارة لأنهما وسيلة الاتصال بين البيت والمجتمع

يجب أن نعنى بالبيت أجل العناية حتى نجعله متحفا يحوي تراث الجدود وطرف الحضارة والوان الرفاهية ، ولكن يجب أن نتوقى حبسة الجدران لأنها تحبس النفس عن التوسع والنمو والترقي

ولذلك نصحنا بضرورة الخروج من وقت لآخر إلى المطاعم العامة أو المتنزهات الخلوية . ولذلك نصحنا أيضا بضرورة التخفيف من أعباء البيت حتى لا يستحيل إلى ورشة لا ينقطع العمل فيها للطبخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التي يجب أن نفصلها من فضيلة الكرم . ذلك لأننا نقرن الكرم إلى الموائد المطهمة والوان الطعام السخية

ولكن الضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذه الشره المادي . لأن هدفها ترقية العائلات بالتعارف والتنوير بالحديث والمناقشة

وفي مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على موائدها الألوان لا يكون من مفاخر ربة البيت أن تعد لضيوفها مائدة يتوسطها الدندي وتحتشد عليها اللحوم والحلويات . ويستطيع وجيه في الريف أن يزودنا بهذه المائدة ولكنه يعجز عن امتاعنا بالضيافة المهذبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام أن نعنى بالأثاث في ايجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة . فاننا كثيراً ما ندخل أحد البيوت فلا نجد غير تلك الكراسي الواقفة التي نقعد عليها وكأننا وقوف . وكأن المقصود منها الا نطيل القعود

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرقي حين نفكر في الضيافة الراقية . وصحيح أنه لا بد للضيافة من شيء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يجب أن يكون ذلك في حدود التعقل والاعتدال . لأننا حين نستضيف أو نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع إلى حديث يعلمنا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التي لا يتيسر لنا لقاؤها الا في مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءا خاصا من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوما كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاي أو المثلجات مع القليل من الأطعمة الخفيفة كالسندويتش كل ما نقدمه للضيوف . وتقديم الشاي خير من اعداد العشاء ، ذلك لأنه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهي في الساعة التاسعة أو العاشرة ثم هو لا يرهقنا بنفقاته فيثبطنا عن المواظبة

ويجب أن يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف . وقد يكون رب البيت أو ربته هذه البؤرة إذا كان أحدهما ممتازا له مكانة اجتماعية أو أدبية أو اختبارات نشتاق إلى الوقوف عليها، كأن يكون احدهما عضوا في جمعية أو مؤسسة لها نشاط معين . ولكن إذا لم يكن هذا متيسرا فان من الحسن أن تدعى شخصية ممتازة أو ترتب محاضرة في موضوع يهتم له الضيوف . ثم يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد إلى أن

نقول أنه يجب ايجاد محاضر فذ في كل ضيافة . فأن هذه الحال المثلى لا تتوافر على الدوام ولكن ربة البيت المستنيرة التي تتجه هذه الوجهة تستطيع في غياب المحاضر أن تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسي أو إجتماعي يشغل الضيوف ويثيرهم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهي حرك أعضاء العائلة والضيوف إلى ما يشبه المباراة الفنية في الزي واللغة والشخصية . كما أنها ، أي الضيافة ، تربي أبناء البيت الناشئين على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبي ، ثم الشاب ، في حياة افرادية معزولة . وقد ينشأ لذلك فجا مربوك الحركة ثقيل اللسان لا يعرف كيف يتحدث إلى آنسة أو كيف يشترك في سمر مهذب منير

وهناك كتب كثيرة في اللغات الأجنبية تصف فن الضيافة سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعام والشراب الخفيفين أو ناحيته الاجتماعية بايجاد الوان من السمر المسلي

وفن الضيافة يقتضي العناية باختيار الأصدقاء والمحافظة على صداقتهم . فأن الاهتداء إلى صديق والاستمتاع بصداقته طوال العمر أو معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق اليهما . والصداقة لا تنهض ولا تحيا إلا على أسس من العلاقات الروحية التي أثمرها اشتراك في الثقافة أو الأهداف والمثليات الاجتماعية

وليست القرابة شيئا يقاس إلى جانب الصداقة . ولا مصادفة الميلاد التي جعل من هذا الشخص شقيقا أو خالا أو ابن عم لا تكفي

وحدها لتعارف العمر . إذ كثيراً ما ينتهي الأقرباء بالدم إلى أغراب بالاتجاه الاجتماعي أو الثقافي . ولكننا حين نعرف صديقاً نجد عنده نزاهة الضمير ونور العقل ، هذا الصديق هو جوهرة العمر التي يجب الا نفقدها . وإذا كانت الضيافة تعثرنا على مثل هذا الصديق فأنها تكون عندئذ قد فتحت لنا باباً من أبواب السعادة الدنيوية

البيت معهد حر

البيت في الأقطار المتمدنة في أوربا وأميركا معهد حر لا تسوده سلطة الأب الاتوقراطية . ينشأ فيه الأولاد في مجتمع راق يختلطون بالضيوف ويجدون في هذا الاختلاط تنويرا وتدريبا على المعاملة والايناس والحديث ، والكلمة العذبة ، والعبارة المهذبة . كما تجد الزوجة فيه مجالاً لترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها وبما تجد في ضيوفها من ميزات تنقلها عنهم

وكلمتا البيت والعائلة تندمجان في معناهما . والبيت الأمثل هو الذي تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الأولاد

وإذا كان هؤلاء في سن صغيرة يحتاجون إلى الارشاد فان هذا يجب أن يكون خاليا من الاستبداد والتسلط . لأننا يجب أن ننشد مبادىء الثورة الكبرى ، أي الثورة الفرنسية ، في البيت قبل أن ننشدها في

المجتمع . أي يجب أن نعمم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها في المجتمع

ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطي في البيت قبل أن يمارسوه في المجتمع . لأن البيت الديمقراطي هو الأساس للمجتمع الديمقراطي

وأعظم ما يكوّن الشخصية في الرجال والنساء هو الحرية . أي الحرية التي تلقي على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها . فيؤدي تحملها إلى نموهم . وإذا انعدمت الحرية من البيت استحال إلى سجن . وبعيد بل محال أن تتكون الشخصية في السجن حيث لا مجال للحرية أي للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب ، هذا الاحساس الذي ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل

وفن الحياة هو في النهاية فن تكوين الشخصية الراقية . إذ ليس شيء أجمل في هذا الكون من الشخصية اليانعة التي عاش صاحبها في حرية الفكر والعمل وفي تحمل التبعات والواجبات حتى ارتقى وتدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو يسير في الدنيا وهو نور وفهم واحساس

ونحن في مصر ، للعبء الباهظ الذي نحمله من تقاليدنا الماضية نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك أمام الأطفال والفتيات والسيدات . فلا تجد شخصياتنا التربية التي تؤدي إلى انضاجها وايناعها . فينشأ الشاب وهو في خوف للدنيا لا يقتحم في تفكيره أو عمله . وتنشأ الفتاة وهي محجمة

متراجعة تلتزم الصمت والسكون والاستيحاء والتراجع كأنما هذه خطة حياتها أو هي الاعتذار عن حياتها . فلا تحيا الحياة المليئة ولا تزدان برشاقة الإيماءة ولباقة الكلمة ولا تستطلع ولا تدرس ولا تخطىء ولا تجرؤ ، ولذلك تخسر كثيراً من جمالها الروحي ، هذا الجمال الذي لا يعوض منه جمال الجسم الذي يبدو عندئذ راكدا جامداً . وهو كذلك بالمقارنة إلى الفتاة الأوربية التي تتذبذب حيويتها طرباً في شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا في شجاعة وانطلاق واستطلاع ، في حين تواجه فتاتنا المصرية دنياها في تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لأن الأولى عاشت في حرية في حين عاشت الثانية في قيود التقاليد

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض في البيت . وإذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه في الثقافة فيجب أن يدأب في رفعها إلى مستواه وأن يجعل من وسطه الاجتماعي ما يحملها على الارتقاء . نعني بذلك أن يختار من الضيوف والزائرين ، الذين يتبادل وأياهم الزيارة ، أولئك الاحرار المتعلمين الذين يخجلونها ويخضونها على أن تثقف عقلها وأن تتجه الاتجاهات التي تزيد البيت فنا وجمالا كما تزيد حياتها نضجا وايناعا

وقد يتعب الشاب في سنيه الأولى من الزواج وهو يوجه زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا التعب في سنوات عديدة من الهناء الذي تثمره مزاملة قائمة على المساواة الحقة في الميزات والتأنقات الذهنية وفي تربية الضمير وانضاج العقل

أما إذا أهمل تثقيفها فأنه سرعان ما يجد الانفصال الروحي قائماً بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان في مأوى

وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم ما لا نحرمه حتى الحيوانات التي يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا ، فنزهقهم بالدرس في الوقت الذي تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة في اللعب والمرح . بل أحياناً ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم التربية الاجتماعية الحسنة التي يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا في بيئة غير حسنة

وشبابنا في مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الأوربية ، وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التي تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف في حياة المتمدنين ، وينشأون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها فينكرون الحرية على المرأة والأولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والأحجام ، تلك الحياة التي تجعلهم يعيشون في نسك أو ما يقاربه ، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها

أجل . إن شبابنا يجهلون أن الخادمة الأوربية تقتني مكتبة في غرفتها لا تقل مجلداتها عن مائتي أو ثلاثمائة مجلد وهي تصر على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون أن الضيافة لا تنقطع في البيت الأوربي الراقي . وأن الأولاد يدعون أصدقاءهم إلى ولائم في البيت فيجدون التشجيع من آبائهم على هذا النشاط الذي يكسبهم المرانة الاجتماعية والضيافة الراقية . وأن الأختلاط بين

الجنسين لا ينقطع منذ الطفولة إلى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات البشعة التي تفشو في المجتمعات الانفصالية في الأمم الشرقية . فالحياة هناك أملأ وأمتع والشخصية أتم وأينع

أجل . ليست الدنيا للناسكين المنكفين ، وانما هي للمقدمين المجربين الذين يستطلعون ويعملون . ونساء أوربا يعملن وينتجن ويختلطن . وهن بهذا السلوك يتكملن وينضجن . فالمرأة تبدو هناك وهي في الثلاثين انسانا قد جرب وعرف ، وأخطأ وأصاب واستطلع ودرس . في حين أن المرأة عندنا تكون في هذه السن قد التزمت البيت وارتضت حدوده وجدرانه فحددت بذلك امداء عقلها ونشاط روحها وسجنت مواهبها وعطلت ضميرها

يجب أن نعيش في حاضرنا

نحن لا نعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة . حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا احدى هذه الحيوات . وإذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، وإذا عوملنا في اثنائها كما لو كنا شبانا ، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحي حياة معينة كان من حقه أن يحياها إذ هي لن تعود

ولكن هذا هو ما نرى في عصرنا . فان كثيراً من الآباء يحرمون ابناءهم لذة صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب اعداداً للمستقبل . كأن الحاضر لا قيمة له ، وكأنه يجب أن يضحى به من أجل المستقبل ، كما يضحى بالصبا من أجل الشباب . وكثيراً ما نرى صبياناً بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة في الدراسة أما بضغط آبائهم وأما بترتيبات جهنمية قد اخترعها لهم ابليس حين يحضر المعلمون إليهم في البيت ويقهرونهم على الدرس .

مع أن هذه الفترة من العمر تنادي باللعب والمرح وبالتجارب التي يخترعها الصبي لفهم الدنيا . وليس من حقنا أن نحرمه اياها

وهنا نعود إلى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان الأولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتبار أنه صبي فقط ، يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقه الطبيعي . ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفكر في مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمبارة العامة التي نتوهم أنها تسوده ، نبالغ في تفكيرنا إلى حد القلق فلا نفكر في منطق وتعقل ولكن في خوف وفزع . ونسرف في تأكيد الدراسة وحرمان الصبي هناء الصبا أي حرمانه احدى حيواته التي لن تعود إليه . ولو عقلنا لأحسسنا الاجرام الفظيع في هذا العمل

وليس من شك في أن نظام المباراة الذي نعيش فيه ، والذي يسود مجتمعنا ، يجعلنا جميعا في خوف دائم من المستقبل . ولذلك نكاد نقضي عمرنا كله في التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحياناً إلى قلق نيوروزي أي ارهاق نفسي نعجز عن تحمله . وهو يبدو في خوف أو فزع . فان البخيل الذي يحرم نفسه لذة المتع الصغيرة وهو يجمع قرشاً على قرش انما يفعل ذلك لمركبات نفسية هي في حقيقتها أمراض يحتاج إلى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التي تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيأ لليوم الأسود بالقرش الأبيض . مع أن من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش الأبيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة في هذا اليوم الأسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من خوف المباراة العامة التي لا تجعل أحدا مطمئناً على مستقبله فأسرف في التهيؤ

لهذا المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التى قد تطول ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أو عمق . والعادة لثبوتها تحرمه الترفيه عن نفسه مهما ساءت الأحوال

ونحن جميعاً نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم الصبي لذة صباه انما نتجه وجهة هذا البخيل في الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته لاقتناء العقارات والاثراء انما نتجه هذه الوجهة أيضاً وان كنا لا نبلغ درجة البخيل في الحرمان

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش في حاضرنا فنتمتع بمتع الطفولة في طفولتنا . ومتع الصبا في إصبانا . ومتع الشباب في شبابنا . ولا نؤجل شيئا من ذلك تهيؤاً للمستقبل . لاننا لسنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فإذا حرمنا الشاب متع شبابه بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لا نثق بأنه سيعيش إلى هذا المستقبل المنتظر

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعامى عنه ولكنا نعتقد أن من يعيش في حاضره انما يعيش أيضا لمستقبله . ونعني المعيشة السليمة . فان هناك فرقا بين اثنين يخافان المستقبل . أحدهما يبخل ويقتر ويبالغ في الحرمان ، والآخر يؤمن بأداء قسط سنوي لاحدى شركات التأمين مثلا

وهناك أيضا فرق بين تلميذ يدرس في المدرسة ويلعب خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه ، وبين آخر يرهق بتكاليف مدرسية أخرى في بيته ، تراه قد حبس نفسه بعيدا عن والديه وأخوته ويسهر الليالى

والرجل السوي الذي تتزن أعصابه يكتسب من حاضره بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر إليه مطمئنا فلا يجنح إلى التقتير ولا يهرول في جهده لاقتناء المال

وإذا عشنا في حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه ، وتمتعنا بمتعه فأننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعددنا للمستقبل . فالرجل الذي تعود مثلاً القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة والمجلة انما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك يتهيأ بها لشيخوخة يقظة بعيدة عن السأم والتبلد

وكذلك الرجل الذي مارس عملا كاسبا وانتفع بالتأمينات المألوفة يسير نحو المستقبل في طمأنينة

أما إذا كانت الأيام حبلى بمفاجآت ، كما رأينا في الأزمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العامل وفزع الجنون وتقتير البخيل ، كل هذا يستوي أمام تلك المفاجآت . أي جميعنا عندئذ سواء . وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد إلى يد الدولة أو يجب ذلك

ومن المألوف أن نجد شخصا يكد متعبا مهموما في اقتناء الثروة وفي نفسه شوق إلى الاستمتاع . فهو يحلم بالبيت الذي سوف يبنيه أو ببضعة الفدادين التي سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . أو هو يحلم بالسياحة في أوربا . وقد يحلم أيضا باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع في برنامجه شراء مكتبة تحوي آلاف المجلدات التي تدربه وتثقفه . ويحلم بكل ذلك وهو في الثلاثين أو في الأربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء كي يحققه وهو في الستين

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنت مخطيء . لأنك حين تصل إلى سن الستين تكون العادات التي مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها . ثم وأنت في الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت في الثلاثين أو الأربعين

ولذلك يجب أن تعيش في حاضرك وتبدأ الآن في استمتاعاتك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك إلى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت كفاءتك للاستمتاع بها . إذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا كذلك غير متع الشباب. ونشاطك الآن أضعاف نشاطك في المستقبل وسوف يأتي عليك يوم وأنت في الستين حين تكون قد جمعت المال والعقار ثم تحاول القراءة فيحول دون ذلك ضعف العينين . ثم تحاول السياحة فيحول دون ذلك أمراض الكليتين . ثم تحاول الصداقة فلا تجد من يقدرك لضعف جاذبيتك

أجل . لا تنس المستقبل وفكر فيه . ولكن تفكير العاقل الذي لا يضحي بحاضره من أجل هذا المستقبل

النمو والتطور

عندما نتأمل رجلا جامدا رجعيا وآخر متطورا ارتقائيا نجد أن لكل منهما اتجاها قد عين له مزاجا خاصا . فالأول في صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيرا من أي تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . في حين أن الثاني ، ذلك المتطور الذي لا يبالي التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية الاجتماعية . وهو يدعو إلى نهضة ما في السياسة أو الاقتصاد أو إلى تغيير في الأدب أو الاجتماع

ولذلك نستطيع ، في معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين ينشآن من الخوف

وقد يكون المرجع والأساس لهذا الخوف أن الرجعي قد اسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكراهة والقسوة حتى صار بعد ذلك يظن أن السلامة والطمأنينة لا تكونان إلا في استبقاء

حالته ، إذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، والا في تجنب أي تغيير إذ هو يوجس شراً مما هو فيه

والجامد الرجعي لا يحيا الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التي تشهد بهما ألف مليون سنة من تاريخ الأحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان في أعماق سريرتنا وأننا لن نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل السعادة السلبية ، إلا إذا كنا في نمو وتطور لا ينقطعان طوال حياتنا

بل أحياناً ، حين نتأمل أحلام اليقظة التي نستسلم إليها في لذة نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة حميمة في نفوسنا . أي أننا نحس أننا غير راضين عن حالتنا إذ ندأب في التفكير في تغييرها . وليس الايمان بالمستقبل ، بل بالشجاعة والاقدام ، سوى ايمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة والجمود والرجعية سوى الجبن والخوف . وكلاهما يحملنا على الركود والتقلص

والأمم « الشرقية » لفرط ما عانت من مظالم ملوكها الباغين وأمرائها المنحطين وحاكميها الظالمين يغلب عليها الجمود إذ هي على الدوام متشائمة بالمستقبل تخشاه وتتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش في الماضي . أما الأمم الأوربية فتكاد ترقص للمستقبل وهي ترضي بالتغير والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهباً والتطور منهجاً

وليس من السداد هنا أن ننصح القارىء أن يكون متفائلاً وأن يتجنب التشاؤم . لأن هاتين الحالتين قد تكونتا في الأغلب منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكمت فملأت القلب شكوكاً وشبهات بشأن المستقبل . ولكن من السداد أن نبين أننا لن نستطيع

أن نتطور ، أي نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين . وعلى كل قارىء عندئذ أن يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما . وهو إذا هبط على هذا المرجع عاد إلى التفاؤل والشجاعة

وأوضح المظاهر للارتقاء والتطور والنمو هو الثقافة . وصحيح أن هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية أو سياسية فيبرزون في هذه الجهات ويجنون منها ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية

ذلك أننا عندما نرقي بالثقافة ارتقاء نفسياً ذاتيا لا يستطيع أحد أو ظرف أن ينتزعه منا . والنفس تتطور بالتغير الثقافي فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا أو الشباب وتهبط على عوالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل

والذي يجب أن نثبته ونؤكده أنه ما دمنا في تطور ثقافي فإننا نتجنب السأم والجمود والتبلد فتمتلىء الدنيا حولنا مباهج فلا يكربنا اليأس ولا نجزع من العجز بل نتحمل حتى الكوارث المرهقة ونتحداها

وإذا اعتدنا الثقافة فان الأغلب أننا نخرج منها بمذهب كفاحي للخير البشري . وهذا المذهب يغذونا وينير بصيرتنا عن دلالة الحياة كما أنه يوفر لنا اهتمامات لا تنقطع . وما دمنا في هذه الاهتمامات فاننا لن نحس هذا السأم القاتل الذي يغمر حياة المنغمسين في الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها

وفن الحياة هو ، في معنى ما ، فن العيش في سرور ان لم يكن في

سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بايجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية

وعندما نعمد إلى دراسة ، نحس احساساً عميقاً بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كي نوفرها ، إلى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجدده

وكلما تقدمنا فى السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين ، يتوانى نشاطنا وقد نتبلد أو نجمد . ولكن ، إذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجاً للحياة ، فاننا ندخل في دور الكهولة والشيخوخة ونحن مستبقون لشبابنا مبتهجون بالدنيا قد أحتفظنا بكلمات اللغة أي بالأفكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فاننا في حاجة إلى تأكيده إذ ليس هناك ضمان للشيخوخة السعيدة الا مع الثقافة الدائمة التي تستبقي الذاكرة في حيويتها الشابة

وهناك ألوان من الارتقاء كثيراً ما نأجمها . فاننا عندما نندفع في اقتناء المال ، أو عندما نبذل جهودنا كي نحصل علي مركز اجتماعي كنا نطمح إليه . نجد أن الهدف الذي وصلنا إليه دون ما أملنا وتمنينا من حيث قيمته في جلب السرور إلى نفوسنا . الا الثقافة وحدها فانها تملأنا غبطة ولذة أكبر مما كنا نحلم به

ولعل مرجع هذا أن آفاق الثقافة واسعة متشعبة ليست لها نهاية في حين أن للمركز الاجتماعي أو المالي نهاية . ولذلك لن نعرف السأم إذا جعلنا غايتنا من النشاط والنمو ثقافية

ان الثقافة هي نمو العقل ، نمو النفس ، بعد ان يقف الجسم عن النمو الطبيعي . فنحن حين نقرأ وندرس نحس كل يوم على جديد نحس فيه التوسع والتعمق ، أي نحس النمو كأننا نكبر بعد صغر ، ونتسع بعد ضيق ، وننظر بعد عمى

احساس القصد في الحياة

الحياة هي الصحة ، وهي الوقت ، وهي الدراسة ، وهي الاستمتاع . وأخيراً هي احساس القصد بحيث لا نحيا سدى أو جزافاً وانما نهدف إلى هدف

وحياة بلا صحة هي حياة ناقصة لا نحيا فيها أربعا وعشرين ساعة في اليوم ، لأن عبء المرض يثقلنا . فنحن نسير في الدنيا ببطء ونرتاح كثيراً ونلزم السرير ساعات أكثر مما كان يجب لو كنا على صحة تامة . وبكلمة : يقل نشاطنا . ولذلك يجب أن نعرف أن التبذير في الصحة هو تبذير في الحياة

وكذلك الشأن في الوقت . فان أعمارنا محدودة . وقل من يتجاوز منا السبعين أو الثمانين . ولذلك يجب الا نستهلك وقتنا في السخيف من الأعمال التي لا تثمر ولا تزيدنا نمواً أو رقياً . وكثير من نشاطنا يذهب هباء . وهو بذلك ينقص حياتنا بحيث اننا نستطيع أن نقول لمن بلغ السبعين من العمر أنه لم يعش سوى خمسين سنة . ذلك

لأنه قضى عشرين سنة في أعمال سخيفة ونشاط زري لا يليق بالرجل العظيم . إذ أنه كان يقضي الساعات كل يوم في ألعاب الحظ كي « يقتل » الوقت مع أن هذا الوقت هو بعض عمره أي أنه لو كان قد تأمل لعرف أنه كان يقتل عمره . أو هو كان يشغل ذهنه بالقيل والقال ومشاحنات القضايا في المحاكم وقراءة المجلات الوضيعة ونحو ذلك

والحياة هي الدراسة . لأن أذهاننا يجب أن تسمو على التفكير الساذج . ويجب أن يكون لها نصيب من العلم والفلسفة والأدب والفن . وحياة تخلو من هذه الشؤون هي حياة رخيصة لا تستحق هذا المخ الذي يحوي تسعة ملايين خلية . ونحن حين نبذر ونرسل نشاط هذه الملايين من الخلايا إلى التافه السخيف من الأفكار انما نكفر بالحياة

وأخيراً الحياة هي الاستمتاع . وأجمل أنواع الاستمتاع هو الدراسة التي تنير ذكاءنا وتجعلنا نجلو عن هذا الكون غموضه فنفهم ونزداد بذلك انسانية وهو الحب للمرأة و للأبناء والطبيعة والشرف والعدل

* * *

عندما يشرع أحد الأثرياء في بناء منزل يعمد إلى أحد المهندسين ويكلفه وضع « التصميم » أي الرسم لهذا المبنى الجديد ، وهو يفعل ذلك اعتقاداً بل يقيناً بأن هذا المهندس سيراعي كل ما يحتاج إليه من الاقتصاد والراحة والجمال في هذا المبنى

ولم يعد أحد يبني بلا تصميم ، ولم يعد أحد يعتمد على نفسه في وضع التصميم . بل هو يبحث عن الخبراء ويؤدي الأجر العالي لهم راضياً لأنه يعرف أن المنزل أو المبنى « المصمم » أي الذي رسم ودرس قبل البناء خير من المنزل أو المبنى المرتجل

ولكن هذا الذي نفعله في البناء نهمله في الحياة . مع أن الحياة أثمن من البناء . وهي تحتاج إلى الترسيم والتخطيط أكثر مما تحتاجه مدينة بأكملها

وكثير منا يعيشون جزافاً أو ارتجالاً ليس لحياتهم برنامج أو هدف . وهم لذلك ينساقون بالحوادث بدلاً من أن يسوقوا هم هذه الحوادث . والتقلبات تسيطر عليهم بدلاً من أن يسيطروا هم عليها . وكثيراً ما أحس وأنا أنظر إلى أحد هؤلاء أن الدنيا قد دوختته . فهو ذاهل خاضع ذليل . لم يفكر قط في أن يرسم حياته بيده وأن يعين لنفسه هدفاً وان يقبض على مصيره وأن يسلك السلوك الذى به آخر العمر إلى تحقيق شهواته العليا بحيث يعود على تاريخه فيجد أنه عاش العيشة المنظمة وأنه نما ونضج بسني عمره فملأها بالاستمتاع والانتفاع

أن الاهتمام بالمستقبل كثيراً ما ينتهي إلى وسواس جنوني يحملنا على التقتير أو على ايذاء الصبيان بحرمانهم الاستمتاع بحاضرهم كي يعيشوا لمستقبلهم

ولكن الحكيم هو الذي يجعل حاضره ومستقبله كلا واحداً . وهو لذلك يضع تصميم حياته في تعقل بحيث لا يضحي بالحاضر للمستقبل .

أو العكس . وهذا التصميم يعين له الخطط والوسائل في صيانة صحته وتكبير شخصيته وتأمين شيخوخته من المرض والفقر والجهل

ويمتاز الحكيم من الأحمق بميزات كثيرة ربما يكون احساس القصد أعظمها . ذلك أنه يحيا عن قصد ويرمي من جهوده إلى هدف في حين أن الأحمق يعيش جزافا ينفعل بالحوادث ولكن الحوادث لا تنفعل به . فهو ينتقل في عمره من عام إلى آخر كأنه ذاهل ينساق بالظروف لا يجد لحياته دلالة أكثر من أنها عام وتمضي بل عمر وتمضي

ولكن الحكيم يحس القصد ويسير نحو الهدف . وهو يعين لحياته برنامجاً يؤدي إلى هذا الهدف . ويتخذ من أسلوب عيشه الوسائل التي تصل به إليه بل وتجدده . وهو دائب في السؤال : لماذا أعيش ، وماذا أتمنى ، وما هي بغيتي ، وما هو هدفي في هذه الدنيا ؟

وهو بهذه الأسئلة يتجدد وينشط . وكأنه ، بتجديد أهدافه ، يولد جملة مرات ويحقق لنفسه عديداً من الشخصيات والأفكار . وليس في كل هذا ما يمكن أن يوصم بالتقلب والتذبذب . إذ هو تطور إلى أعلى وإلى أوسع

ولذلك يجب أن يكون احساس القصد عميقا في نفوسنا ، كما يجب أن تكون مراحل حياتنا نحو الأهداف اعلاما للتجدد والتطور

وليس احساس القصد واجبا على الفرد وحده ، إذ أن الحكومات يجب أن تحس هذا الاحساس أيضا ، بحيث يسأل الوزير نفسه عن « سبب وجوده » في مركزه وعن الأهداف التي يتخيلها ويدرسها ويحاول تحقيقها لأمته

ولو كان احساس القصد عميقاً عند الساسة الذين تولوا شؤوننا من قرن لما كنا قد تورطنا في الكوارث العديدة التي مرت بنا والتي مازلنا نعاني مغبتها المؤلمة

وأعمار الأفراد محدودة ولكن الدولة خالدة أو كالخالدة ، ولذلك علينا أن نحس القصد من وجودها وتعين أهدافها التي قد تتحقق بعد عشر سنوات أو مائة أو ألف سنة

لقد كان دلسبس في ١٨٦٩ يحس القصد حين حمل الحكومة المصرية على منحه احتكاراً يعيش مائة سنة ، ولكن الحكومة المصرية لم تكن على مثل هذا الاحساس حين منحته هذا الاحتكار . ولذلك سعدت شركة القنال وشقيت الحكومة المصرية

وفي عصرنا هذا ، بل منذ أكثر من قرن ، عاشت أمم وحكومات شرقية بلا قصد ، عاشت جزافاً تتخبطها الظروف وتسوقها الحوادث إلى أن جاءتها حكومات غربية تعيش عن قصد وتعين أهدافها : فتسلطت عليها وجعلتها المطايا الذلل التي تحقق هذه الأهداف

ان احساس القصد ، في الفرد والجماعة ، يحملنا على أن نرتب أذهاننا ونعنى بثقافتنا وأخلاقنا ونضع البرامج لحياتنا

يجب أن ندرس الطبيعة

هذه الكتب التي نجمعها ونتأمل ما فيها من أفكار الفلاسفة والأدباء والعلماء هي كنز عظيم . وبيت بلا كتب هو صحراء قاحلة يحيا عليها بدو جهلاء

ولكن هناك كتباً أخرى يجب أن نقرأها في الطبيعة ، في الأرض ، والسماء ، والبحر ، والنهر ، والحقل ، والجبل .

وحقولنا في مصر تزرع بغية الاتجار بمحصولاتها . ولذلك فقدت في أعيننا تلك الصلة الحميمة التي كان يجب أن تربطنا بالأرض . وخاصة لأن أهم ما يزرع فيها هو القطن الذي نحسب قيمته بالجنيه والقرش . ولو أن الأرض عندنا كانت تزرع للغذاء فقط وليس للثراء لكان لها مكانة أهم وأجمل في قلوبنا

واحساسنا نحو الأرض ، حين نجد الذرة أو القمح أو الفول أو البرسيم نامياً عليها ، هو احساس جميل ، احساسنا نحو الأم

فنحن نأكل تراب الأرض بعد أن تحيله هذه الأم إلى حبوب جميلة وإلى مراع للماشية . ولا نحس هذا الإحساس حين نراها مزروعة بالقطن .. لتجارة القطن في البورصة

أن هذا النظر التجاري للريف المصري قد أحاله إلى قبح ودمامة . إذ يعيش المالكون للأرض في المدن ويتجرون بالايجارات لأرضهم ولا يبالون من يفلحونها . ولذلك لا تكاد تجد صاحب أرض في مصر يزرع في أرضه شجرة أو يربي حيواناً غريبين . بل هو حين يزور ضيعته لا يعرف كيف يميز بين أسماء الطيور التي تطير في سمائها . ولم يقعد قط في شهر مارس ، شهر الغرام ، كي يراقبها ويستمع إلى نداءات الغرام في قصائد الغزل التي تؤلفها وصرخات الخوف وصيحات الغضب بين ذكورها وإناثها

وثقافتنا الريفية لا تكاد تتجاوز تلك المعارف النفعية التي يمارسها الفلاح كي ينتزع العيش من الأرض . وهو لفقره وما يمارس من حرمان ظالم ، يكاد يكره الأرض إذ هي أقرب أن تكون ظئره القاسية من أن تكون أمه الرحيمة . وهناك ألوف من الفلاحين لم يزرعوا قط شجيرة لجمال أزهارها أو عطر زهرتها . ولم يجمعوا قط طاقة من الورد يتشممونها ، لأن لقمة الخبز ، خبز الذرة تستحوذ على كل تفكيرهم ونشاطهم . وهذا هو ما فعلنا بريفنا

لا . ليس الريف تجارة . إنما هو معيشة

يجب أن نعيش في الريف كي نسهر لياليه في ضوء القمر ونحس السحر في الطبيعة . أو نتأمل النجوم في ظلام الليل ونحس الدين . أو نربي مجموعة من شجر الزهر وإليها خلايا النحل ونجمع عطور الزهور ، أرواحها ، ونأكل من لبن النحل . أو نقعد في الظهيرة إلى

حافة قناة جارية تحت قبة من أوراق التوت الخضراء فتجرى أفكارنا خضراء ساذجة عن الحب للفلاحين . فلا نجيز لأنفسنا تركهم يعيشون في أكواخ من الطين مع روث الماشية ، ثم اعتصار دمهم لجمع الاجارات الباهظة

وليس الريف مع ذلك هو كل ما في الطبيعة

أول اهتمامي عندما أهبط بور سعيد أو الاسكندرية أو السويس أن أزور أسواق السمك فيها . فهناك أجد اللجاة والسيبيا والريتزا والانكليس والكابوريا . أسماء قد تجهلها أيها القارىء مع أنك قد تأكلها . وهي جميعها أحياء تزيدنا عند التأمل احساسا بالطبيعة . وقد تحثنا على أن نزور متحف الأحياء المائية فنرى هناك عجائب من دنيا البحار . بل هي قد تثير استطلاعنا فنعود أطفالاً نجمع المحار من الشواطىء . ونتساءل . وقد نجد من يجيبنا فيخبرنا بأن في العالم آلاف الأنواع من المحار وأن هناك على جبل المقطم محاراً أيضاً يدل على أن جبل المقطم كان بحراً

يجب أن نربي قلوبنا على حب الطبيعة وعقولنا على فهمها

وما أحسن أن نسير على شاطىء النيل من القاهرة إلى أسوان في فصل الشتاء ومعنا دفتر ندون فيه ونرسم على أوراقه ما نجد من مناظر وأسماء وألوان . وما أجمل أن تتألف جماعات لهذا الغرض

أن الروح التجاري الذي يسودنا يقول : هذا ضياع للوقت

ولكن الفيلسوف ، وكلنا فلاسفة على الرغم منا ، يقول : هذا حب للطبيعة ، هذا درس للأم ، هذه حياة

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أي إنسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ، أو حتى يتسامح في الكثير منها ، الا بمجهود شاق يضنيه ويقيم من المجتمع الذي يرتضي هذه القيم ، خصماً له . ولكن يجب أن نتنبه من وقت إلى آخر إلى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا ننساق فيها ذاهلين . وحتى لا ننسى أننا بشر قبل أن نكون مصريين أو فرنسيين أو عرباً . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا هذا الاحساس

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها . فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها أثاث فاخر أو جواهر غالية أو سيارة فارهة أو رسم على جدران أو نحو ذلك مما ننساق فيه فنتوهم أننا سادة نختار ونقرر مع أن الواقع ، اننا في الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعي الذي يأبى علينا الاستقلال

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين على هذا العرف الاجتماعي . مثل تولستوي الذي هجر المدن وعاش في

ضيعته يصنع حذاءه بيديه . أو غاندي الذي نزع عن جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا إلى قنوعه من الطعام باللبن والفواكه : أو ثورو الكاتب الأميركي الذي ترك المدن وبنى لنفسه كوخاً لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين إلى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطير . وقد قال عن هجرته هذه في الغابة وحياة الفطرة

« إني أردت أن أسوق الحياة وأحرجها في زاوية كي أعرف هل هي شيء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو إلى نفسه ويستمع إلى همساتها بعيداً عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خالياً من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كي يستكنه أسرارها ويصل إلى أصولها ويتعرف الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها

وكلنا يحس في أعماق القلب والمخ أننا في حاجة إلى مثل هذه التجربة . وأن العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أي صنعتها لنا الحضارة

ولذلك يجب على كل من ينشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والأوزان البشرية ماثلة في ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها . وهو عندما يفعل ذلك ، وعندما يألف الطبيعة ، سيحس أنها ، أي الطبيعة ، تحوي ألوانا من الجمال في الشفق عند الغروب ، وفي شموس الليل أي

النجوم ، وفي بزوغ الشمس عقب سكينة الفجر ، وفي رهبة الجبل ، وبسطة الصحراء ، بل في تنوع النبات والحيوان ونضرة الحقول ، مما يجعله يحتقر الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونعتني في جمعه والتفاخر به

وليس من الضروري أن نسلك سلوك ثورو في الهجرة إلى مكان قصي نعيش مستوحدين سنتين أو أكثر كي نصل إلى جمال الطبيعة وكي نهتدي إلى مراسينا منها . فان اللجوء إلى الريف من وقت لآخر ، وقضاء الأيام بل أحياناً الساعات فيه ، يضيء بصيرتنا ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات والنوامي التي تنمو حولنا كما تنمو الأعشاب والطفيليات على جسم السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غاندي لم يخسر حين نزع ١٥ قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . إذ الواقع أنه كسب . أو بكلمة أصح : هو كسب من حيث القيم البشرية وخسر من حيث القيم الاجتماعية

وأحياناً حين أقعد في الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل شيء على الأرض الى خلق سحري ، أو حين أتأمل النجوم وأنا أعرف أن كل نجم يضيء أكثر مما تضيء شمسنا ، أو حين أتأمل الشفق في رائعة جماله ، أو حين أخرج في الفجر انتظر بزوغ الشمس والدنيا هادئة صامتة كأنها لم تخلق الا منذ دقائق ، أو حين أتأمل قطرات الندى وهي ترتعش في الصباح على أوراق الشجر ، أو أتأمل أسراب الغربان وهي عائدة إلى أعشاشها عند الغروب ، أو اليمام وهو يغازل على استيحاء وفي طمأنينة ، أو حين أتأمل هذه الحرب الخفية السرية بين

النبات والحيوان في ديسة أو خميلة على جدول ، أتعجب من انسان يرضي بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتل الوقت على المقهى بدلاً من أن يجرى ساعياً لاهثاً إلى الريف كي يختبر هذه الدنيا في أعماقها وصميمها

وأتعجب من انسان أو بالأحرى انسانة ، تعتقد الجمال في عقد من اللؤلؤ أو قلادة من الألماس مع أن جبلاً من هذه الجواهر لا يساوي في جماله جمال الشفق أو القمر

ويفشو الجهل بالطبيعة ، أي بالدنيا ، حتى لنجد انساناً « يعرف » طائفة من المعارف الميكروسكوبية عن الأدب أو العلم ، وهو يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الأول . فلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان

وقد جزأتنا الوطنية أجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا لا نشتاق إلى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا أو مدافقنا الرائعة مثل نياجرا . لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود ونياجرا هو ملك خاص بالأمريكين أو الكنديين

بل الواقع أننا لا نشتاق إلى رؤيتهما لأن القيم الاجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج « الجميلة » بدلاً من الاهتمام بالاقتناء النفسي لجمال هذا الكوكب . وكثيراً ما أدخل البيوت التى تمتاز بحدائق فأجد أشجاراً أسأل أصحابها عن أسمائها فلا يعرفون . لأنهم انما غرسوها انسياقاً وراء العرف وليس تقديراً لقيمة النبات أو إحساسا بأن الشجر قريبنا نحن . إذ هم يعيشون في عزلة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف إلى اسمه أو أصله

وأحياناً أجد من الحسن أن أرد بعض الذاهلين إلى التعقل وأعيد إليهم القيم البشرية أن أسأل أحدهم : هب أنك أصبت بمرض قاتل ووثقت من الأطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين أن تقتني ألف أقة من الألماس واللؤلؤ ومائة قنطار من الذهب ، أو تقضي هذا العام الباقي من عمرك على هذا الكوكب في زيارات رائعة إلى القطب الشمالي وجبال هملايا ومدافق نياجرا وغابات أفريقيا ، ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك في صيد القيطس عند القطب الجنوبي وترى الفيلة في غاباتها في الهند . أجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية في الهند واليابان ونروج واستراليا ، وترى الانسان البدائي والانسان المتوحش والانسان المتمدن . ومقدار التدمير الذي أحدثه هذا الأخير بكنوز كوكبنا

لو خيرت بين هذين لاخترت بلا شك أن تقضي عامك في زيارة الأرض التي قضيت فيها ماضي عمرك وأنت محبوس محجوز في بقعة معينة تظن أنها كل شيء وتقضي سنيك في اقتناء بهارج ليس لها غير القيمة الاجتماعية التي تعمينا عن الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد أن البشر في المستقبل سينفضون عن عواتقهم التكاليف الباهظة العديدة التي يتحملونها الآن من الحضارة ويفكرون في القيم البشرية . وسوف يجدون في الآلات المنتجة ، بل في الطاقة الذرية ، ما يجعل العمل الإنتاجي سهلاً لا يحتاج إلى قضاء الوقت أو الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا الكوكب وطن البشر جميعاً . وعندئذ

تصير الجبال والبحيرات والغابات ، بما تحفل به من حيوان ونبات ، كنوزاً يحتفظون بها ولا ينقطعون عن زيارتها

وإلى أن نصل إلى هذه الحال يجب أن نذكر أنفسنا على الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب أن نحتال بالتوفيق بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء إلى الريف . ويجب أن تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فإن صيد السمك ينزعنا أحياناً يوماً كاملاً من الوسط الحضاري الصناعي إلى وسط طبيعي . وكثير من المفكرين يحتاج إلى مثل هذه الهواية التي تختمر فيها الكامنة وقت السكينة عند شاطيء النهر ثم يؤدي اختمارها إلى تهيئة العقل للانتاج المثمر

أجل . يجب أن نتنبه على الدوام إلى القيم البشرية ، ولا ننساق في قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب أن نذكر أن الطبيعة ، أي الأرض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات والحيوان هى كنزنا الأول الذي يجب أن نقتنيه اقتناء نفسياً وندرس جماله ونستمتع به وذلك بالاتصال الذي لا ينقطع به

الاتجاه والرؤيا

الاتجاه والميول والغايات هي عادات كامنة « تكيف » عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتماماتنا . وكثير من النجاح يعزى إلى الاتجاه والغاية لأن النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام . فإذا تعينت لها غاية ، يهدف إليها النشاط ، نشطت . وكذلك يعين الاتجاه الأسلوب الذي نعيش به

اعتبر صبياً أو طالباً يتجه نحو الأولوية في المدرسة وينصبها غاية . فهو يكد ويتعب ويثابر كي يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه أسلوبه في الدراسة بحيث أنه ييتئس كثيراً إذا زحزحه آخر عن مركزه الأول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضروري أن يكون هذا التلميذ إذ كى من غيره من المتخلفين عنه وانما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفي وليس ذكائياً لأن الأتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمي أو الذهني

اعتبر كلبا جائعاً ، وآخر شبعان . فالأول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشي وأنفه للأرض يبحث عن الطعام . وهو في هذه الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع. متحرك العقل بالتفتيش وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن أعتبر الآخر الشبعان فانه قاعد راكد أو نائم

فالعواطف هي التي تحركنا . والاتجاهات والميول والغايات هي عواطفنا التي نتحرك بها إلى الدراسة والجد والسعي والإثراء وغير ذلك . وهي كما تحرك أجسامنا تحرك أيضاً أذهاننا ، فنتنبه بعد الغفلة وننشط بعد الطموح والركود ، اتجاهات : والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الفتور

ولكل منا خارطة روحية أو ذهنية أو نفسية يرتسم عليها العالم ويحدد ما فيه من قيم وأوزان اجتماعية أو بشرية . وبهذا جميعا نتجه نحو غاية أو نرى رؤيا ونتخذ أسلوباً . فالمتفائل يتحمس ويتحرك ويجد لذة العيش . والمتشائم يتبلد ويركد ويجد الحياة ماسخة لا يتطعمها . ومن هنا مثلاً قيمة الدين عند المؤمن ، فإنه يجد فيه الرؤيا كما يجد الأسلوب . فيكون الدين له بمثابة الصابورة التي تتزن بها حياته ولا تتقلقل إذا ضربتها الزعازع والكوارث

والرؤيا هي ثمرة التفاؤل . لأن المتشائم لا يرى رؤيا . فلا يمكن مثلاً أن تكون اشتراكيا تؤمل المساواة والاخاء بين البشر إلا إذا كنت متفائلاً . والعكس صحيح . لأن الرجعي المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التي لا تتغير ولا يمكن معالجتها . فهو لذلك متشائم بلا رؤيا . ولذلك يكافح الأول ويرقد الثاني

وقس على هذا . فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح ، وهذا الروح يحملنا على الدراسة والسعي والرقي . فنجد لذة الحياة في الكفاح كما نرتقي به .

الكفاح للاستعمار والاستغلال والكفاح للتعصب الديني واللوني والكفاح للمرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحرك به عواطفنا وتنشط . بل كدت أقول : تتذكى عقولنا . ونحن بهذه الأنواع من الكفاح لا نخدم أمتنا فقط بل نخدم أنفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع في الحياة . ونرتفع إلى مستوياتها العالية

وربما كان أعظم الاتجاهات اتجاه الحب باعتباره أسلوباً للعيش . لأن الحب يزيد الفهم أي أننا نفهم أكثر عندما نحب ونفهم أقل أو أحياناً لا نفهم عندما نكره . الا ترى أن الأم تفهم الشيء الكثير من إيماءة طفلها أو أي طفل آخر إذا كانت تتجه وجهة الحب ؟ في حين غيرها الجامد أو غير المبالي أو الكاره ، لا يفهم شيئاً

وهناك من يقول أن الحب يعمي . ولكن الحقيقة أن الحب يبصر ويفتق الذهن للفهم والمعرفة . ولكن الكراهية والحقد والبغض والنفور ، كل هذه تعمي وتغشي على عيوننا وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم

والرجل الذي يحب الحياة الفنية ، ويحب الانسان والطبيعة ويحب الثقافة ، يجد أنه ، بقدر السعة في حبه ، يزداد فهمه وتعمقه ورغبته التي لا تنقطع في الاستزادة من الفهم والدرس والاستطلاع . ثم هو

بهذا الحب يجد الرؤيا التي يهدف إليها في اصلاح منشود أو ظلم يرفع أو اختراع يحقق . فيعيش سعيداً بهذه الأفكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفصفر يتلألأ ويضيء على ما حوله

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبرة بأنه يخالف التقاليد . لأن الحب هو نقطة التبلور في اختباراتنا وثقافتنا . والرجل الذي يختبر كثيراً ويدرس كثيراً ويتجه وجهة الحب لا بد أن يصل إلى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الحب البشري . ومن هنا كفاحه وانسانيته لأنه في جميع كفاحه الماضي انما كان يحاول أن يكون انسانا انسانياً وأن يحمل البشر على أن يكونوا انسانيين

وإذا كان رجل التقاليد ينبزه بأنه ملحد أو كافر لأنه يضل في اشتباكاته الثقافية ، فان غيره من المتعمقين يعرف ايمانه ، هذا الايمان الذي وصف به فولتير في كفاحه للمتعصبين والمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحي في فرنسا حين قيل عنه أنه « الملحد المسيحي » . ونحن الآن نعرف أن الدين بل القداسة كانت في قلب فولتير الخصيب . وأن الكفر كان في قلوب أولئك الكهنة العقيمة

وخلاصة القول أن فن الحياة يقتضينا أن تكون لنا اتجاهات وميول تنتهي إلى رؤيا . فنكسب منها الحب البشري بل الدين . ونجهد ونخدم في تفاؤل وحب ، نحب الانسان والشرف والمجد والصحة والخير ، ونحب الحيوان والنبات والجبال والأنهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على نشاط دائم مستطلعين مكافحين محبين للخير كارهين للشر

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التي ألفها كتاب خالدون نجد أننا إنما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاماً ، ونجد مرح الحياة في المغامرة والدخول في الغمر العباب دون القناعة بالشواطيء والمخاضات ، وأما نجد ، بدلا من هذه الشخصية ، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها إلى الأعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر في الحياة

ومع أننا نقرأ كثيراً فانه قلما يخطر ببال أحدنا أن يعيش في هذه الدنيا كما لو كان بطلا في قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهي هو وهو هي

ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلناه ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التي يقرأون . فالشاب الذي ينكب على قراءة قصة ما انما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة في

القصة . والفتاة التي تدمن الذهاب إلى دور السينما انما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدرامة التي تشاهدها . وهي تعيش ، بجميع احساساتها ، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدراميات ليست سامية . ولذلك فإن المطابقة بين قارئها أو مشاهدها وبين أبطالها أو حوادثها ليست مما يرفع ، أي ليست مما يساعدنا على أن نجعل حياتنا سامية نعيشها في فن وحذق وتأنق ومجد

ولذلك يجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هي كذلك من أول ساعة نخرج فيها من الرحم إلى هذا العالم . فان الموتى الذين لا يطيقون هذا الخروج كثيرون جداً . فإذا كانت بداية حياتنا مغامرة فيجب ألا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبقي هذا الشعار سائر عمرنا . ويجب ألا ننسى أبداً أن الطمأنينة التي نتوخاها هي على الدوام جزئية ونسبية وظرفية . لأن الطمأنينة التامة هي الموت

ومن أجمل أو أحكم الكلمات التي خلفها لنا نيتشه قوله : كل مالا يقتلني يقويني . وأيضاً قوله : عش في خطر . وذلك أن الحياة اختبارات فإذا واجهنا خطراً وخرجنا منه دون أن يقتلنا فقد كسبنا الاختبار ، وازددنا بذلك عرفاناً للدنيا وحكمة في الحياة . وإذا عشنا في خطر زال عنا الذهول الذي تتسم به العامة وصرنا في يقظة وتنبه وذكاء وفهم فتكون الدقائق عندنا بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من حياة طويلة هزيلة يعيشها الانسان في ذهول ، كأنه بلا عقل أو ضمير .

والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامراً لأنه يسير في أرض مجهولة لا يعرف نهايتها . وهو في هذا الاكتشاف أو الاختراع يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب ، ومن منا لا يحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أو ثلاثة أشهر فقط وهو يتطلع إلى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلاً من قضاء مائة سنة وهو منزو في شارع لا تضيق حدوده الجغرافية فقط بل تضيق فيه أيضاً حدوده الذهنية والنفسية ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون أو غاندي لاقتحامات الأول الحربية واقتحامات الثاني الروحية . ونقرأ سير القديسين والمصلحين والمخترعين في شوق لأننا نطابق بينها وبين أنفسنا في رغبة حارة للاقتحامات التي امتحنت حياتهم فخرجوا منها أوفر حكمة وأعمق فهماً

ولنا مما قلنا عبرتان : العبرة الأولى ألا نلتزم الدعة والطمأنينة فنحجم ونتقلص ونتراجع أمام الأخطار . والعبرة الثانية الا نبالغ في شأن الكوارث التي تصادفنا . لأننا ، ما دمنا لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين أزددنا بهما فهماً وحكمة

وكتب الأدب العالي تكسبنا من الاختبارات ما لا نحصل عليه في مجتمعنا . والشعر العالي هو أحسن ما في الأدب . لأن الشاعر يعرف أنه لن يثير في القاريء حماسة أو يلهب فيه ناراً الا إذا ارتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء في الموضوع أو في التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الاقتحامات

مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفي الفذ من الموضوع الواضح المبتذل

واسأل أيها القارىء ، أي انسان متقدم في السن . فإنه لابد آسف على تلك الفرص التي عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لا يأسف لأن الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسبة بل لأنه يحس أنه كان يكون أسعد لو أنه كان قد اختبرها وعاش فيها

وقد كان المتنبي يقول :

وكل شجاعة في المرء تغني　　　ولا مثل الشجاعة في الحكيم

الشجاعة مع الحكمة تغني في النهاية . العاطفة مع التعقل أي الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه

وخوف الاقتحامات هو في صميمه خوف الحياة أو هو أسف على الخروج من الرحم وحنين إلى العودة إليه . والرجل الذي يخاف لا يعيش غير تلك الحياة النباتية البقلية ، يعيش آمناً في مكانه يخشى أن يتزحزح لئلا يسقط

الحياة المليئة

عندما نتأمل المخ البشري ، وهو آخر مخترعات الطبيعة وقمة التطور ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التي تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الأفكار والمركبات الذهنية الجديدة ،ولكننانقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الأفكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عُشر المخ كان يكفينا . ولو أننا عنينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم والجري على الأسلوب الفاشي ، لو أننا عنينا بهذا لكان كل منا فيلسوفاً أو عالماً مخترعاً . لأن في المادة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية ولكننا نتركها بائرة في جدب بلا حرث أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها

وحياتنا الفكرية هي بعض حياتنا البشرية ، وأن يكن هذا البعض أفضل ما نملك . ونحن للأسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية .. فقد تطول حياتنا ولكنها لا يكاد يكون لها عرض.أوهي تمتليء بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتليء بالحياة

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التي اختارها أبو تما لمجموعة الاشعار التي جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فان البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التي تجمع المتشتت من النور في بؤرة مركزة ، فنحس العاطفة الذهنية في حماسة تثيرنا طرباً أو اعجاباً أو تفكيرا . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الحياة . إذ يجب أن نعيش في حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أي هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه إليه الحياة

وهذه ، كلها من المعاني الفنية ، معاني الشعر ، التي يجب أن ننقلها إلى الحياة

وعند التأمل نجد أن لنا ثلاث حيوات نمارسها جميعاً . وهي في صميمها ثلاث ذوات

١ — فان لنا الذات الحيوانية ، ذات الرجع الانعكاسي ، والشهوات والغرائز ، للأكل والتناسل والتسلط ، التي نشاهدها في الحيوانات الدنيا والعليا

٢ — ثم هناك الذات الاجتماعية العرفية التي نحيا فيها بعادات المجتمع بلا تساؤل أو معارضة

٣ — وأخيراً هناك ذاتنا العالية ، ذات التعقل والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من غرائزنا وننظر النظر الموضوعي

والحياة المليئة هي حياة التعقل التي تحملنا على التخلص من الأنانية

الآسنة إلى الغيرية الحية فتتوسع وتتعمق بما يشبه البر الذهني . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ، هي تلك التي يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسميها « الحاسة الاوقيانوسية » أي زيادة في الاحساس تجعلنا نحس الاندغام الشخصي في الكون كله بحيث نحيا في ذراته وجزيئاته وكواكبه ونجومه ونباته وحيوانه

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى ما نستطيع أن نقوله في يقين أن الحياة المليئة تحتاج إلى سخاء وتفاؤل . لأن أعظم ما يحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هو البخل ، بخل الذهن وانكماشه . وهذا البخل ينشأ من التشاؤم الذي يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فنتبلد ونجمد . ثم نعيش في حياة ضنينة قليلة الاختبارات . وقد ننتهي إلى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك انكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما يجب أن يكونا وسيلة وليسا غاية . أي أننا ننسك ونزهد ونعتكف كي نستجم ونعود إلى الاختبارات الفنية والذهنية والعاطفية . أي نعود بقوة متجددة لزيادة الاستمتاع . وكذلك يجب أن نمارس العفة حتى نسمو بالتعارف الجنسي إلى مستوى من التأنق والفن يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع التعقل مكان الغريزة الغشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهباً وخطفاً بل تكون تأملاً وحباً ، فنتحدى الجمال في فن وتفكير إذا تحدى غرائزنا هو في اغراء وإغواء

والحياة المليئة تحتاج — كما يجب أن نكرر — إلى وفرة الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لنتعلم وندرس الكتب

والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور البشري . نهتم بها جميعاً لا متفرجين فقط بل عاملين أيضاً . ونعيش فيها بروح الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم وحتى يستيقظ ذكاؤنا وتستفيض شبكة المركبات الذهنية في خلايانا المخية . وإذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط وان كان هذا أفشى مظاهره . لأن أسوأ ما في البخل نزوعنا فيه إلى التبلد والاعتكاف الذهني والعاطفي وكراهة الاختبارات . إذ هو يمنعنا من أن نحيا ملء حياتنا

والحياة المليئة تحتاج إلى التفاؤل بالدنيا والمستقبل وإلى السخاء وإلى دوام الاستطلاع والنمو

ويجب أن يصدق هذا القول على المرأة كما يصدق على الرجل لأن أتعس ما يؤدي إليه حجاب المرأة ، أو العادات النفسية الذهنية المتبقية من الحجاب ، هو اعتكافها في البيت وأحجامها عن الاختبار والسعي والاستطلاع ، والتعلم بالاختلاط بالمجتمع

والمرأة لا تقل في الانسانية عن الرجل ويجب أن تكون لها جميع حقوقه التي تجعله يمارس انسانيته ويربي شخصيته . وهي لن تمارس انسانيتها وتربي شخصيتها إلا إذا اختبرت وسعت واستطلعت وتعلمت مثله سواء ونالت حقها في كوارث الدنيا التي يتعرض لها الرجل ويتربى بها

الهوايـــة

فراغنا يزداد في المستقبل . وسيزداد أكثر فأكثر . وسيكون ملؤه أو الانتفاع به من أعظم المشكلات في التعليم والتربية ، بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هي الانتفاع بالفراغ . أي كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . أما التعليم الحرفي فلن تكون له هذه الأهمية

وفي عالمنا الحاضر طبقة من الأثرياء تعيش في فراغ كامل أو تكاد ، لأن وسائل العيش الممتاز موفرة لها . إذ أن أفرادها يستغلون أفراد الطبقات الأخرى . ولكن عندما نتأمل الطرق التي تتبعها هذه الطبقة الممتازة في قضاء فراغها أو استغلاله نجد أنها ليست مما يغري . فأن سباق الخيل وصيد الحمام ، والصيد بالقنص في مطاردة الثعالب والأرانب ، وقضاء الليل في المقامرة أو العربدة الجنسية أو الكحولية ، كل هذا أو أشباهه لا يدل على أن هذه الطبقة المترفة الممتازة قد عرفت شيئاً يمكن أن يوصف بأنه « فن الفراغ » بل هو يدل على أن

هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه إلا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت

وتطور الآلات والزيادة في الانتاج وتوافر الضروريات لكل انسان ثم توافر الكماليات في المستقبل ، ستجعلنا جميعاً في شبه تعطل . لأن طرق الانتاج العلمية التي لا مفر من استخدامها في العالم كله قريباً ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد في أقصر الوقت . ولذلك ستجدنا جميعاً معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج إلى ما يشغلنا . فإذا لم نجد المفيد الذي يرفعنا ويرقينا عمدنا إلى المضر الذي يحطنا

بل نحن ، قبل أن نفكر في المستقبل ، نجد أن حاضرنا يوفر لنا ، أو بالأحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغاً يتراجح بين أربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وأن نتعلم كيف نملؤه . وعند الانكليز كلمة « هوبي » لما نسميه بالعربية « الهواية » أي العمل نهواه ونعمله للذة فقط لا نبغي منه كسباً . وعندما نملأ فراغنا بهواية نجد تخفيفاً بل معالجة للتوترات التى نستجيب بها حانقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . ولكنا نعرف أن الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التوترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فإذا كانت الحركة تسير في عمل محبب فان الارادة تتجه إليه في نشاط حتى تستحيل إلى حماسة ، ويعود الاتزان النفسي الذي تزعزع من ارهاق العمل الحرفي ، يعود إلينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ،

وهم في الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم وأن ننفق بسخاء على ما يحتاجون إليه لشغله . وذلك لأن فراغهم في المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا

وعلى القارىء أن يقصد إلى احدى المكتبات في القاهرة ويطلب احدى المجلات التي تعالج الهوايات واسمها « هوبيز » وهي في الأغلب انجليزية . ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وان ينتفع أو ينفع أولاده

وأقرب الوسائل إلى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراستنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفرداً في الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش . ولا غير وسيلة واحدة للترفيه والترويح . إذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجاً بل خير لنا أن تتعدد الطرق

وقلما يخلو بيت في أوربا من غرفة يستأثر بها الزوج ، لا يجوز حتى لزوجته أن تتدخل في ترتيبها . وفي أغلب الأحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة إلى سطح البيت وهي مريحة في فوضى أثاثها وأوراقها ، وهي ملجأ أو معتكف يلجأ إليها الزوج كي ينفس عن كظومه أو يفرج عن توتراته . وهي من المرافق الاجتماعية التي تمهد العقبات وتسوي النتوءات التي تنشأ من ارهاق العمل أو من احتكاكات العائلة

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين

يسعدون بشيخوختهم ، حين يحيلهم المجتمع إلى التقاعد ، يكونون في الأغلب قد هووا الدراسة فلازمتهم هوايتها إلى الشيخوخة . وهناك هواية أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو — للمرأة — أنواع من التطريز والوشي والنسج

وأذكر أني زرت مرة أحد الأندية النسوية في القاهرة فوجدت طرازاً جميلاً خفيفاً من الكراسي عرفت ، حين سألت عن صانعه ، أن هذا الصانع موظف كتابي في الحكومة قد هوى هذا العمل وأتقنه لا يبغي منه فائدة مادية ، ولكن الفائدة المادية جاءته عفواً بحيث يستطيع الآن أن يستغني عن وظيفته الحكومية ، ويقتصر على النجارة

والانسان الذي تشغله هواية ما يسعد بفراغه . ويستطيع أن يتفنن في هوايته ويتأنق في أدائها لأنه لا يتعجل ولا يهرول إذ هو في فراغ ينبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحبذا المرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقي بها اجتماعياً أو انسانياً وتجد فيها أيضا ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللائي يملأن فراغهن بالقيل والقال

وربما لا يكون الزمن بعيداً حين تعلم المدارس وتخرج تلاميذها أو طالبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تعني بالفراغ والهواية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب ، ويوجد في هذه الدنيا الواسعة لا أقل من ألف هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدي اليها . وقد تكون احدى هذه الهوايات بذرة لاختراع أو اكتشاف جديد يحتاج إليه البشر . وهل فكرت أيها القاريء وذكرت أن كثيرا من المخترعات والمكتشفات انما كان ثمرة احدى الهوايات التي ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفى ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا إلى هواية . أولاً لأن حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث على توترات وكظوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسي لأننا نجد فيها كل يوم انتصاراً وحماسة . وثانياً لأننا نرتقي بممارسة هواية ما ، إذ نتعلم فناً أو أي مهارة أخرى تحرك ذكاءنا أو عضلاتنا . وثالثاً تحول الهواية دون الوقوع في العادات السيئة

وأنت أيها القارىء عندما تجول في شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السادرين الذين يقعدون على المقاهي ويدخنون في ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر في غير مبالاة ، أو تجد النساء في انتقاماتهن السيكلوجية بالشجار السافر أو المستتر ، فإنك لابد عند التأمل وأجد أيضاً أنهم يكابدون توترات وكظوماً قد جهلوا طرق التخلص منها . وخير الطرق في ظروفنا الحاضرة هو هواية لذيذة تملأ فراغهن

وفي عصرنا وظروفنا نجد الرجل الناضج الذي حصل على مقدار من الثقافة أن أعظم هواية تشغله وتملأ فراغه هي الدراسة وخاصة دراسة السياسة في وطنه والعالم بروح البر والاهتمام لخير البشر

وكثير مما ذكرنا في هذا الفصل قد سبق أن أشرنا إليه في فصول سابقة . ولكنا احتجنا إلى جمع بعض الملاحظات هنا لما بها من الدلالة على قيمة الهواية

الخلـــوة

يبدو الانسان كأنه حيوان اجتماعي لا يطيق العيش منفردا ، وهو يعد الحبس الانفرادي أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فأن المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران في الزنزانة ولذلك يعاقب المسجونون أحياناً بحرمانهم رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون في الزنزانة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، وأخلاقنا ، تدل على أننا اجتماعيون نحب الحياة الاجتماعية

ولكنا ، لأننا نعيش في مجتمع ، نجدنا منساقين في تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فتبرز في احساسنا حقائق العيش والكسب والوجاهة والابهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزناً . أي أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيراً ما تغطي على الحقائق البشرية الجليلة

ومن هنا قيمة الخلوة . فأن التفكير بطبيعته اجتماعي ، أي أننا نفكر بالقيم والأوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولكنا لا

نحسن التفكير إلا في الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاهما ضرورية لنا كي نجد الاتزان النفسي والتأمل الفلسفي وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طرقه وأوضاعه كي نرى أنفسنا على حدة .

وإذا كانت الهواية تربينا لأنها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا تدريباً وتبسط لنا آفاقاً ، فان الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كي نبحث من وقت لآخر مراسينا في المجتمع ، بل في الكون . لأنها تنزعنا من هذا الموكب الذي نسير فيه ، أو بالأحرى ننساق فيه ، ذاهلين إلى موقف اليقظة والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى صرنا نعد العرف قانوناً ازلياً والوضع القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل في الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول أن نفهم الفهم الموضوعي ، فهم الضمير والتعقل ، بدلاً من الفهم الانسياقي الاجتماعي . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع « أجازة » كي نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجري وما يجب أن يجري . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هي التي تحملني مثلاً على أن أحس أني لست مصرياً فقط إذ أنا قبل ذلك بشري انتمي إلى ٢٢٠٠ مليون انسان وليس إلى ٢٠ مليون مصري فقط . وهؤلاء هم أسرتي الكبيرة التي ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التي توج بها التطور بعد ألف مليون سنة من الكفاح على هذا الكوكب . وهم الذين أفكر فيهم حين أتخيل الانسان بعد مليون سنة أو أكثر

وما أبدع غاندي حين كان يصر على أن يختص بيوم كل أسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولو لم يختل ولم يعتكف . لأنه في هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار

وكل منا يحتاج إلى مثل هذا اليوم الأسبوعي . ولكن الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع إلى مقام غاندي حتى نأمر فنطاع أي نطلب الا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . وإذا نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نختلي بلا كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كي ندون ما يستحق من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتي » وهي صفة المتصرف الذي كان يخلو ويعتكف كي يتأمل منفردا دون أن يشغله شاغل بشري أو مادي . وفي حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ما هو الدين ؟ ما هو الشرف ؟ ما هو الكون ؟ ماذا بقي لي من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟ وما هو برنامجي ، برنامج الحياة ، في السنوات الخمس أو العشر القادمة ؟ هل درست ديانتي ؟ هل درست الفلكيات وهي أقرب العلوم إلى الديانة ؟ هل حياتي الماضية أو الحاضرة يصح أن تستمر كما هي في المستقبل ؟ أم هل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج إلى الخلوة لأنها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكنه لا يحسن التفكير فيها إلا في خلوة . وقد كان جيته يقول : « بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئاً بتاتاً »

والواقع أن كل مفكر ، يرتفع إلى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج إلى خلوة من وقت لآخر ، وإذا نظم كل منا خلواته

وجعل لها ميعاداً معينا ، مرة في الشهر أو في الأسبوع ، ويوماً كاملاً أو بعض يوم ، فانه يجد أن في مراجعته لحياته الماضية ، وفي تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى إلى أساليب وأهداف ما كان ليصل إليها لو أنه كان قد استسلم وانساق في المجتمع

وهذه الحياة الاجتماعية التي تلابسنا في البيت والمقهى والنادي والمكتبة ، بل حتي في الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتوافه وصغائر تتبدد بها حياتنا . ولكن الخلوة تجمع تفكيرنا في بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر قد نجد فيه ما نتغير به إلى أحسن

وليست الخلوة التي نقترح بالشيء الجديد . لأن الواقع أن كلاً منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان أحدنا يخرج إلى مقهى ناء كي يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد « نتسطح » في الفراش لا لننام بل لنفكر في موضوع معين . بل ربما قصد أحدنا إلى طريق متنح كي يمشي فيه منفرداً للتفكير . وهلم جرا . فنحن نحس الحاجة إلى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج إلى ارشاد . ولكن إذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك انجع لتفكيرنا وأنظم لحياتنا

والخلوة عند الرجل العادي تعادل البرج العاجي عند الأديب أو الفيلسوف . ونحن نكره الناسك الذي يجعل حياته كلها خلوة . ونكره الأديب أو الفيلسوف الذي لا يعرف من الحياة سوى أن يختبىء في البرج العاجي . ولكننا نحب من الرجل العادي أن يختلي من وقت لآخر كي يفكر . ونحب من الأديب والفيلسوف أن يحيا كلاهما في المجتمع ويشتبكا في شؤونه . ثم يختليا في البرج العاجي للتأمل والتفكير

من هو الرجل المثقف

مشكلة الثقافة هي مشكلة الحياة نفسها ، لأننا نثقف أنفسنا كي نعيش على أفضل مستوى ، وكي نسعد بالفهم على أوسع الميادين البشرية والكونية . ونحن نتعلم فناً أو علماً كي نحترفه ونرتزق به ، ولكن التثقيف أكبر من التعلم ، لأن الثقافة للحياة وليست للحرفة

والرجل الذي يصل إلى أسمى مستويات الثقافة ، هو الرجل الذي يحيا الحياة المثلى ، ويفهم الفهم العام . ولذلك يجب أن تبقى الثقافة مشكلة أبدية مبسوطة للبحث والتطور الفكري ، تتغير بتغير المجتمعات ، وترتقي بارتقاء المعارف

ومع أني ألفت كتابا عن « التثقيف الذاتي » وكيف يستطيع الانسان أن يثقف نفسه ، فاني مازلت أجول في هذا الميدان . وأحاول الاسترشاد بالشواغل الجديدة فيه

وقد قرأت مقالا مسهبا للأستاذ « دوبريه » يرى القارىء هنا

تلخيصاً له مع بعض الايضاحات . وعلى القاريء أن يقرأ هذا المقال وهو يسائل نفسه : ماذا عنده من هذه المعارف التي يقول الأستاذ دوبري أنها ضرورية للرجل المثقف ؟

اقرأه أيها القارىء واسأل : هل أنت مثقف أو نصف مثقف أو غير مثقف ؟

وأفهم من هذا السؤال أنك تحيا على المستوى العالي للحياة ، أو أنك لم تبلغ سوى نصف المسافة إلى هذا المستوى ، أو أنك لا تحيا تلك الحياة الانسانية التي تسمو على حياة الشهوات ، حياة الحيوان

لقد وضع الاستاذ دوبريه ستة شروط للرجل المثقف

أولها : أن يعرف التركيب الطبيعي للعالم الذي نعيش فيه ، أي يجب أن يدرس الطبيعيات والفلكيات . فيعرف المواد والعناصر التي تتألف منها الأرض والشمس وسائر النجوم أي الشموس . ودراسة الطبيعيات والفلكيات تحتوي الكيمياء وسائر القوى التي كنا قبل خمسين سنة نتعلمها منفصلة مثل المغنطيسية والكهربية والضوء والحرارة ، أما الآن فهي تعلم معا على أساس التركيب الذري ، وقد ربطت المعارف الذرية هذا الكون فنحن والشمس والنجوم سواء في المواد والعناصر

نحن وحدة قد انفصلت أجزاؤها ، والسبيل إلى الوقوف على هذه الوحدة هو دراسة التركيب الذري

فما عندك من هذا أيها القاريء ... « المثقف » ؟

والشرط الثاني : أن نعرف أي حيوان أنت من بين هذه الألوف

من الحيوانات ، وإلى أية أسرة فيها تنتمي ؟ ثم ما هي الظروف والعوامل التي جعلت الانسان انساناً ؟ وما هي الظروف والعوامل التي تعمل لبقائه أو لفنائه ؟

وبكلمة أخرى : هل درست تطور الأحياء في الألف مليون سنة الماضية ، وعرفت كيف تكونت الأسنان وكبر المخ وظهرت الغدد الصماء ، وماذا يربطنا بالسمك ، ولماذا فقدنا أذنابنا ؟

أنه تاريخ عظيم حافل إذا درسته ازددت انسانية ، وعرفت قرابتك للزرافة وللسمك ولليمام والنعام

فماذا تعرف من هذا التاريخ ؟

والشرط الثالث للرجل المثقف هو : أن يكون قد درس الحركات الكبرى في التاريخ البشري . ونعني تلك الحركات التي وجهت التاريخ البشري وجهة أخرى ، أو زادت سرعته ، أو فتحت ميادين جديدة للفهم . وهناك حركات قد ملأت التاريخ ضجيجا واشتعالا ، ولكن سرعان ما هدأت وانطفأت كما نرى في حركة الشقي تيمورلنك أو الشقي جنكيزخان . ولن نخسر شيئا إذا جهلناها . ولكن الحركات الارتقائية البنائية ، التي استنهضت الانسان إلى التقدم والاقتحام والتي لا يزال أثرها باقيا نحتاج إلى الدراسة . ومنها اكتشاف المصريين للزراعة فهو اكتشاف أو اختراع أخرج البشر من الغابة إلى حياة التمدن . ومنها اختراع الكتابة الذي يرجع الفضل فيه إلى المصريين أيضا ، ومنها ايجاد الدين والحكومة والسنة والشهر والأسبوع ، ومنها اختراع المطبعة والآلات . ثم أخيرا اكتشاف الذرة

وبعد سنين حين تذهب عنا دهشة الذرة ، سيقسم التاريخ البشري إلى عصرين : الأول عصر الجاهلية قبل الذرة ، ثم عصر الفهم بعدها

والشرط الرابع للرجل المثقف : أن يعرف النظم التي يعيش بها البشر . أي نظام المجتمع ونظام الحكومة ، أي كيف يتزوج الناس وكيف يتصرفون بالثروة وكيف يوزعونها على الأفراد ، وما هي الطرق التي تتبع في الارتزاق والتعلم وصيانة الصحة ؟ ثم كيف يحكم الناس ، وكيف تحل المحاكم مشاكلهم بالعدل أو ما يفهمونه من معنى العدل ؟ بل كيف تغيرت المجتمعات البشرية ؟ وما هي الأسباب الأصيلة ، التي تجعل احدى الأمم راكدة آسنة في حين أن الأخرى ناهضة متقدمة ؟ وهذه الأسئلة تطالبنا بدرس الاجتماع والقوانين والسيكولوجية والانثروبولوجية

والشرط الخامس : أن يعرف الرجل المثقف أسس القيم البشرية . وهذا يجب أن يحمله على درس الأديان والفلسفات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، أي يجب أن يعرف ديانة المصريين القدماء وكيف تصوروا النعيم والجحيم ، ومبلغ ما فهموا من معنى العدل . وكذلك ديانات الصين والهند وايران والبونان إلى ظهور الأديان التوحيدية الكبرى

وقريب من الأديان في الاتجاه هو الفلسفات التي حاولت بالتعقل ما حاولته الأديان بالوحي . وهذه الفلسفات يجب أن نناقشها بعقل مفتوح منذ سقراط وارسطوطاليس إلى جون ديوي وبول سارتر

والشرط السادس والأخير : هو أن يدرس الرجل المثقف البلاغة البشرية أي الآداب والموسيقى والفنون الجميلة . لأن الحياة البليغة تقتضي الاحساس العميق والتصور الجميل ، بحيث نستلهم من الأدباء والفنانين أسلوباً يرقي بنا إلى أن نحيا الحياة الفنية ، فنجعل بيوتنا متاحف ، ونعامل الناس في جمال الكلمة والإيماءة ، ونتذوق روعة الشمس في الغروب ، وايقاع الشعر ورصانة النظم وفخامة البناء وجمال الصورة والتمثال .

وخير ما نتعرف به إلى الفنون الجميلة أن نمارسها ، وأن نكون أدباء وفنانين .

★ ★ ★

هذه هي الشروط الستة للرجل المثقف عند الأستاذ دوبريه . فما عندك منها أيها القارىء ؟ وهل أنت تحيا الحياة العميقة البليغة التي يحياها المثقفون الذين حققوا لأنفسهم هذه الشروط جميعها ؟

فإذا لم تكن كذلك فماذا تنوي أن تفعل بنفسك ، بحياتك ؟

ألا تستطيع أن تشرع منذ اليوم في أن تحيا الحياة العميقة البليغة وأن تعد البرنامج الثقافي لتحقيقها ؟

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ الكيماوي في تحليلاته لأحدى المواد التي يقصد إلى عزلها يكون منتهى ما ينشد من نجاح أن يبلورها . أي يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التي كانت تشوبها وهي خامة . وهذا التبلور هو محاولة للوصول إلى الجوهر

ونحن البشر في حياتنا المدنية نولد وننشأ في وسط المدينة أو الريف . فإذا كنا أطفالاً تشابهت تقاسيمنا وملامح وجوهنا كما تشابه سلوكنا الا القليل جداً مما تبرره فروق الوراثة . فنحن في الطفولة مواد بشرية خامة لم تتبلور ولم تتجوهر

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص أثره في كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذي وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه في تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضي السنوات ، عشرون أو ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها وأخلاقها التي

تقتضيها . وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهرة من التعميم إلى التخصيص ومن الحال الخامة إلى حال التبلور . وكأن هذه الاختبارات التي تمر بنا تصهرنا وتخرج منا الجوهر الخاص ، أجل . هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية

لذلك عندما نتأمل أحد الناس ، الذين التزموا حرفة ما ثلاثين أو أربعين سنة ، لا نكاد نخطىء في تعيين حرفته دون أن نحتاج إلى سؤاله عنها . إذ هي تخبرنا وهو يتحدث . لأن لهجة الحرفة غالبة عليه . كما نجد من إيماءاته واختيار أحاديثه وكلماته جميع الأمارات التي تعلن عن حرفته

وبخلاف ذلك نجد أن ذلك الشخص الذي تقلب في حرف كثيرة ، فهو بقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع ، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فإذا قعدنا إليه فلن نعين حرفته . ذلك أن اهتماماته الحرفية لا تتجمع في بؤرة بل تتشعع هنا وهناك . ولذلك أيضا لا يترك في أذهاننا ، من حيث الحرفة ، صورة معينة

ولسنا بهذا الذي ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم لحرفة ما على الآخر الذي تقلب وتغير . وإنما نريد أن نبين أن هناك تبلورا أو تجوهراً نكسبه من الحرفة التي نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد

وعندما نتقدم في السن ، ونكون قد عنينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد أننا أيضا نتبلور ونتجوهر . ولكن ليس من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هي بعض

المؤثرات في الشخصية . ولكن هناك مؤثرات أخرى عديدة إلى جانب الحرفة . وهي تبلورنا وتجوهرنا

اعتبر شاباً فجاً خاماً واعتبر أيضاً رجلاً في الخمسين قد نضجت أخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الأول لا يزال في التعميم . فهو « أحد الشبان » أما الثاني فقد تخصص وله دلالة ، هو رجل يدل ، وهو رمز إلى أشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية

وهذه الرمزية وهذه الدلالة هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التي قضيناها ونحن نقصد إلى غاية ونتبع نهجا ونكسب الاختبارات وننمو بها . وهي جميعاً تصهرنا وتحيل التبر إلى الذهب الخالص

وإذا كانت غايتنا أن نصل إلى الشخصية اليانعة وأن نتبلور إلى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا في مجتمعنا إلى دلالة ، فإن التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلاً أو مبطئاً لأنه يحد من حيويتنا واختباراتنا . أجل . يجب أن تكون الحرفة بعض ما يكون شخصيتنا وينميها ويبرز الدلالة في حياتنا . ولكن يجب ألا تكون هي كل شيء

وفن الحياة يقتضينا أن نرقي إلى السنن ونسير في التعمير ونحن على الدوام في ازدياد التبلور والتجوهر ، ننفي الزيادات ونطلب الخلاصة . وفي حياتنا أشياء كثيرة من هذه الزيادات التي تنمو علينا كما تنمو صغار المحار والودع على السرطان في البحر فتعوق سباحته وتتطفل على جسمه . فهناك مثلا التزامات « اجتماعية » تبعثر وقتنا .

وهناك « مشاغل » مالية تستهلك طاقتنا الحيوية . بل هناك مطامع نشأت ونمت معنا بقوة التكرار وحكم العرف الاجتماعي ، إذا تأملناها بعد سن الخمسين ألفيناها عقيمة تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيش المعيشة التعقلية اليقظة فيما بقي لنا من عشرين أو ثلاثين سنة

لنكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التي يتوافر لها الفراغ والمال فتستطيع أن تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعده من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبق الصيني الذي يوميء بزخرفته إلى عصر مضى ، إلى بساط ايراني تزدهي ألوانه ، إلى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الأثرياء . بل حتى الكتب القديمة قد أصبحت نوعا من الترف يشتريه الأثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر

وأدوات الترف هذه تقتني للبيت . ولكن هناك ألواناً من الترف تقتني للنفس وتمارس كالأدب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضا ضرورة الحياة لأنهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفاً . ولكنها كذلك عند من يهوونها أي يجعلون منها هواية ينفقون عليها من

وقتهم ومالهم . يشترون الكتب الأدبية كي يقرأوها ثم لا يكتفون بهذا بل يحاولون أن يكونوا أدباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الأغلب محاولات عديدة ، قد تنتهي إلى أن تكون ممارسة مزمنة وهي نوع من الترف . لأن الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . إذ هو في الأغلب موظف في الحكومة أو في شركة وقد يكون معلماً أو طبيباً أو تاجراً . ولكنه ، منذ فجر شبابه ، التفت إلى لون من العمق أو النضج أو التأنق الفكري عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك أخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعمد إلى التوسع الفني فيسأل عن الموسيقا والمسرح وينتقد ويتحرى الأصول ويحاول التعمق . وهو هنا لا يبغي كسبا من هذا المجهود إذ هو لا يريد احتراف الفن لأنه قانع بأن يكون هاويا لا أكثر

وثق أيها القارىء أن هذا الهاوي لا يكسب قرشاً من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب . ولكن هذا الهاوي لا يضيع وقته . لأنه بهوايته هذه قد يرتفع إلى أسمى ما وصل إليه الذهن . ذلك أن الشاعر يتخير من الكلمات والمعاني ما يسمو على المبتذل المألوف ، والأديب يحاول أن يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية إلى قصيدة فنية . والفيلسوف يحاول أن يبتكر القيم الجديدة ، والعالم يحاول أن يتعمق الأصول . والهاوي الذي يغمره هذا الجو ويعيش في هذا المناخ ينتهي إلى أن يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ ينتقل عنده التأنق والتعمق في التعبير إلى التأنق والتعمق في الحياة . وهو يحيا في صميم الحياة ، في عمق وفن وشرف . ذلك أن الأديب لا يعيش من يده إلى فمه كما هو الشأن في سائر الناس من حيث النشاط الذهني . لأنه بهذا

النشاط قد استطاع أن يخلق لنفسه عالماً آخر يجتر فيه أفكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضي ويبصر بالمستقبل ويدرس في تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بما ينبغي أن يكون . وهو قد وجد في الأدباء والشعراء القدامى والعصريين من حدثوه أحاديث الكمال والسمو والعدل والشرف والإنسانية والرقي . فهو بهذا كله يجد في نفسه كظوماً تحمله على التفريج بالكتابة . وقد ينجح ويعود ، أو يبدأ يصف الدواء لمساوىء عصره . وقد لا ينجح في الوصول إلى الجماهير ولكنه مع ذلك قد دخل مدينة الفن والأدب والشعر واستمتع بما فيها من كنوز ، وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن يهجرها إلى غيرها

إني أقصد أن يبدأ كل شاب حياته ، حوالي العشرين ، بالتعرف إلى الآداب والفنون والعلوم . يبدأ متفرجاً متنزهاً ، ثم يتدرج محاولاً ثم ينتهي كاتباً . وأقصد أيضاً أن يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الأدب في الكتاب ، ولكن يجب أن ينتهي بأن يحاول أيجاد الفن والشعر والأدب في حياته . أجل ، هذه الحياة يجب ألا نتركها تجري في نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة أو على الأقل نجعل بعض الأبيات العالية تتخلل هذا النثر فنعيش ولو لحظات في حياتنا نحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع من قلوبنا

وهنا يضحك بعضنا ساخرا ويقول : هذا خيال . انما الحياة مجهود نجمع فيه ونكنز لليوم العصيب والأزمة الطارئة وليست الحياة قضاء الوقت في تأليف الشعر

وجوابي أني لا أنكر قيمة المجهود نبذله كي نكفل الطعام واللباس

والسكني . ولكن هل معني هذا أن نقضي العمر كله في الاهتمام بالطعام واللباس والسكني ؟

أن الانسان لا يمكن أن يكون انسانياً إذا اقتصرت اهتماماته وهمومه علي الطعام واللباس والسكنى . وانما هو يرتفع إلى الانسانية عندما نجد الثقافة الفنية ، ثقافة العمق الفكري ، مسكنا في ذهنه تأوي إليه بل تمرح فيه وتمتزج خلاياه وتعود جزءاً لا ينفصل من حياته يوجهه ويكيفه ويعين له التصرف والسلوك . أي يجعله ويضطره إلى أن يعيش المعيشة الفنية

أعرف شابا لا يبالي أن يتغذى بأي طعام يكسر حدة الجوع . ولا يبالي أي لباس يتخذ . ومسكنه غرفة فوق سطح أحد المنازل . وهو بهذه المعيشة غير متمدن أي أنه لا يستمتع بمتع الحضارة في السكنى واللباس والطعام . وهي متع لا تنكر قيمتها . ولكن هذه القيمة صغيرة جدا إلى جنب المتع الثقافية الفنية التي يلمع بها الذهن وتسمو بها النفس . والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس ، هي أشبه المقارنات بنظافة الجسم إلى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب . فانه على الرغم من تقتيره في هذه الأشياء أو بالأحرى اهمالها ، كان لا يترك كتابا يستحق القراءة الا اقتناه ، كما كان لا يتأخر عن شراء التذاكر الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت أجده زري الهيئة نحيلا ولكن ذهنه حافل بالأثاث العصري للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفني . ولذلك كان فقيرا بوسطه غنيا بنفسه

وقد يكون هذا المثال متطرفاً أو مسرفاً . ولكن الحياة الراقية تحتاج إلى أن نمارس فناً جميلاً ينعكس أثره في نفوسنا وعقولنا . فيجب ألا نقرأ الشعر والأدب فقط بل نحاول ممارستها . أجل . يجب أن نكون كلنا أدباء وشعراء وعلماء نكتب الأدب ونقرض الشعر ونستطلع العلم . بل أكثر من هذا . ننقل الأدب والشعر إلى حياتنا . ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة وننزع إلى البطولة في الدفاع عن حق أو الانتصار لمظلوم ونفكر في أسمى المعاني ونعبر بأنصع الكلمات

وأولئك الذين ينشدون السعادة ولا يعرفون ما هي ، قد يجدونها في ممارسة الآداب والفنون من حيث لا يدرون . وخاصة إذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية إلى الكفاح والدعوة لعالم أسمى ، أي عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية من الحضارة

السعادة

السعادة هي سلام النفس . وأول ما يجب أن نعرفه عنها أنها ليست مادية . ويجب أن نميز هنا بين السعادة والسرور لأنهما كثيرا ما يشتبهان . ذلك أن السرور ، أو اللذة ، مادية . أما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر أو بالايمان أو الرؤيا أو الأمل بحيث يحفزنا واحد من هذه الأشياء الأربعة إلى كفاح . ولكن نسر ونلتذ بالطعام أو اللباس أو المال أو الشهوات الجسمية

والمسرات والملذات ، لأنها مادية ، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم تؤجم في النهاية أي تؤدي إلى السأم . ولكن السعادة ، لأنها فكرية ، ولأنها تنهض على ايمان أو كفاح أو اتجاه ، لا تؤجم أي لا تؤدي إلى سأم . فالقديس مثلا سعيد بايمانه وهو يستشهد في فرح وطرب . وسعادته هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تنتهي عند الشبع ، بل حدث بعده صدودا

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائما باقية والسرور وقتيا

زائلاً . ذلك أننا حين نسعد بالفكر لا يعوق سعادتنا حد أو غيرة أو مقارنة مهينة لنا بغيرنا أو احساس النقص بان هناك من يحوزون أكثر مما حزنا . فقد أسر لأني اشتريت عزبة أو أقتنيت سيارة أو غير ذلك من المقتنيات المادية . ولكنني في هذا السرور أحس أيضاً أني كنت أكون أكثر سروراً لو لم .. فان العزبة كانت تكون أسر لي لو كانت أكبر وأخصب . وكانت السيارة تمتعني أكثر لو كانت من طراز آخر . وهلم جرا . ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب أن يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس . وهو أن جميع الناس يسعدون بمثل سعادته ، كما يحدث لأحدنا حين يطرب لاستماعه إلى لحن جميل أو لأنه يتأمل مبنى عظيماً ، فانه يحث رفيقه على أن يستمع أو ينظر ويتأمل معه ويشاركه في فرحه وطربه

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلي ، أيسر مما نظن . فهي لا تحتاج إلى التكلف أو المشقة . بل أن السرور أدعى إلى التكلف أو المشقة من السعادة وذلك لأن السعادة ذاتية ، في ذوات أنفسنا ، إذ هي حال معينة أو اتجاه معين . أما السرور فمادي نحتاج فيه إلى الاقتناء

وقد يكون أيضاً من الحق أن نميز بين السرور والسعادة بأن نقول أن السرور اشتهائي غريزي يتعلق بما نأكل أو نلبس أو نسكن أو نقتني . ولكن السعادة تعقلية مرجعها الفكر أي العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج إلى التربية الفنية بل إلى المعارف العلمية التي تكشف عن خبايا وكنوز لا تصل إلى كنهها الغرائز . فأنا حين أمارس الزهو الاجتماعي باقتناء الأثاث الفاخر أو بالقيام بالضيافة

المطهمة أو نحو ذلك أمارس نشاطاً غريزياً شهوانياً له ذيول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع . أي أنه سرور معلق ولا أحتاج أن أتعلم كيف أمارسه ، ولكني حين أقعد إلى جدول الماء وأتأمل الطبيعة وهي ترغي وتزبد في الحقول أيام الربيع وأتابع فراشة في نشاطها الغذائي أو الجنسي ، أحس سعادة مطلقة . سعادة فنية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج إلى تعلم

وإذا كان القارىء قد تابعنا في منطقنا فانه يستطيع أن يعرف لماذا نكون سعداء عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أو الرسم أو البناء أو نستمع إلى مقطوعة فنية من الغناء أو الموسيقا . فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هي فوق الشهوات الغريزية . ونحن لا نأجم هذه السعادة ولا نملكها كما أنها لا تبعث فينا غيرة أو حسداً أو طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف . كلاهما سعيد بفكرته ، بل أن العالم الذي ينحث موضوعاً علمياً سعيد أيضاً بعلمه لأنه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا كالقديس يرى رؤيا ويعتقد أنها ستتحقق ويجهد وهو سعيد لتحقيقها

وليس شك أن السعادة هي سلام النفس . وهل شك أحد في أن سلام النفس هو فكري وليس مادياً ؟

والعجب أن المتع الحقيقية في هذا العالم ، تلك المتع التي نسعد بها ، أسهل حصولاً وأرخص قيمة من المتع الزائفة التي قصارى مما تؤدي إليه أننا نسر بها سرورا وقتيا زائلا . وهي يجب أن تكون كذلك لأن السعادة فكرية ، والفكر لا يكلفنا مالاً ولكن السرور

مادي يكلفنا مالاً وجهداً . وأحياناً تفوتنا فرصة السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لأننا استغرقنا حياتنا في السرور واللذة

ونستطيع أن نعود هنا إلى المقارنة بين القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . ذلك أن قيمة السعادة بشرية : في الفكر والاتجاه والتأنق الفني والفلسفي والتحقيق العلمي والرؤيا للمستقبل والمثليات والكفاح لهذه الأشياء جميعها . وجميع هذه الصفات ذاتية في ذات أنفسنا . وهي بشرية ليس لها قيمة اجتماعية . ولكن قيمة السرور اجتماعية في الأغلب لأنها تنشأ من اعتبارات المجتمع . لأني أسر مثلا باقتناء سيارة إذ أن مثل هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزاً وتفوقاً أو أسر بالثراء لأن المجتمع يعد الثراء تفوقاً ونجاحاً

وهل نستطيع أن نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل عقولنا فوق غرائزنا أي نجعل التعقل فوق الشهوات . وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو أسمى من همومنا الشخصية . نهتم بالناس والسياسة والاستعمار والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضي الأحياء ، والتطور الماضي والقادم ، والمرض والصحة والدين والعلم والأدب والفلسفة . وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقاً رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة ولا تستعبدنا الغرائز في اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لا تحصى بل لا تفتأ تبعث فيما الرغبة في الزيادة . هذه الرغبة التي تجهدنا بل أحياناً نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أواننا ونحن لا ندري أننا كنا مسوقين باعتبارات اجتماعية هي أبعد ما تكون من السعادة

قلنا في أول هذا الفصل ، أننا نسعد بالفكرة أو الإيمان والرؤيا أو الأمل إذا كان أحد هذه الأربعة يحفزنا إلى الكفاح . وهناك نحتاج إلى تفصيل موجز : ذلك أن الطاقة النفسية لا تتحمل الحبس والكتم ولذلك فان لشأن ما ، أي شأن نعتقد أنه حسن ، يفتح لنا قناة تنصرف إليها الطاقة . أما إذا حبست هذه الطاقة فانها تحدث لنا في الحالات الخفيفة « نيوروزا » أي ضيقاً عاطفياً . وفي الحالات الخطيرة تحدث « سيكوزا » أي جنوناً

ولذلك كثيراً ما نجد الشاب مضطرباً متشائما تسوده هموم مبهمة لا يعرف مأتاها فإذا انضوى إلى حركة سياسية مثلا انطلق في تفاؤل يعمل ويسر بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذي يبعث فيه نشاطا ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من انانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة

وعلى هذا نقول أن السعادة تحتاج إلى كفاح . وسلام النفس لا يعني ركوداً وجموداً بل هو أحرى بأن يبعث نشاطاً وهمة وانجازاً لأمل أو تحقيقاً لرؤيا ، بحيث يكون هذا الأمل أو هذه الرؤيا عند أحدنا أسمى وأعم من همومنا الشخصية الذاتية لأنها بسموها وعموميتها تكسبنا كرامة وتجعل لحياتنا معنى بل دلالة . وهنا السعادة

السعادة أن نخدم فكرة وأن يكون لحياتنا دلالة

تعقيب على السعادة

كلنا تقريبا ننشد السعادة ونتحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التي لا تستحق مناقشة لأننا نعد السعادة خير ما يطلب في هذا الوجود

ولكننا نختلف كثيراً في معنى السعادة . وأن كان المألوف أننا نعني بهذه الكلمة الأمن من الكوارث وراحة البال ، أي سلام النفس والصحة

ولكن إذا كان هذا هو كل ما نعني بالسعادة فان كثيرين بل كثيرين جداً ، يحققونها . ومع ذلك لا يجدون منا غير الاحتقار ، لأننا نحسدهم على حالهم هذه . إذ هي تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتية خالية من التفزز والتنبه ، ثم ما يعقب هذا من تبلد ذهني يشبه الجمود

والرجل الذي تنزل به الكوارث المتعددة هو — في القيم الانسانية كالذكاء والاختبار والتعلم — خير من السعيد الذاهل الذي لم تنبهه

قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : « أين موقفي من هذا العالم ؟ »

والسعداء الذاهلون كثيرون جداً ، وهم يستغرقون في المسرات وينشدون الثراء ، ويبلغونه ويحققونه . وقد يعيشون في القصر الفخم ، ويأكلون أطيب الطعام ، ويتنقلون في الفصول من المصيف إلى المشتى ويجدون حاشية من الخدم ، كما أن شهواتهم تجد الإشباع الدائم ، وراحتهم رفاهية ، ورفاهيتهم ترف وبذخ

ولكن قليلاً من الحديث مع أحدهم يوضح لنا أن سعادتهم انما هي ذهول وخمود وتبلد ، وأنهم لو كانت الاقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة ، توقظهم من سباتهم

وحالهم تذكرنا بالحكمة القائلة بأن أعظم ما ينكب به انسان الا ينكب ، ذلك أن هؤلاء السعداء الذاهلين يجدون في الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم . فان الديدان والحشرات مثلا أسعد ، لأنها أكثر ذهولا منهم ، وهي أيضاً أبعد عن الكوارث . إذ أقل ما يقال فيها أنها لا تعرف الكوارث إلا وقت وقوعها بها فلا تكاد تحسها لأن الموت يدركها

ومثل هذه السعادة يجب ألا ننشدها . لأن السعادة العليا التي هي صفة الانسان العالي هي العقل . وكلما زاد العقل زادت السعادة ، ولكن .. زادت الكوارث ، والهموم والاهتمامات أيضاً

والناس في أغلب أحوالهم يعيشون بالتصور الحسي لأنه هو التصور البدائي بل الحيواني الذي لا يحتاج إلى مجهود . ولكن الرجل الراقي

يدرب نفسه على التصور العقلي . فنحن مثلا نتأثر عندما نرى طفلاً قد وقع من الترام فقطعت ساقه . ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندي ماتوا بالقحط ، لا نكاد نقف عند سطور هذا الخبر كي نتصور هول هذه الكارثة . فالحادث الأول سريع إلى حواسنا لأننا قريبون منه رأيناه بأعيننا . وتأثرنا لذلك سريع . ولكن الحادث الثاني يحتاج إلى مجهود عقلي حتى نتأثر به أي يجب أن نتصوره في مخيلتنا

وعلى هذا القياس نقول أن السعادة نوعان : الأول ، هو سعادة الحواس ، أي المسرات الحسية المادية . أما الثاني فهو سعادة العقل أي سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية . وهذه السعادة الفكرية لا تبالي الكوارث ، بل أن الكوارث تخصبها وتزيدها نضجاً وايناعاً ، بحيث أننا عندما تمر بنا السنين ننظر إلى التقلبات والنكبات التي نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا حيوات عديدة بدلا من حياة واحدة . وكثيراً ما أعود بالذكري الى بعض الصدمات والكوارث والأحزان التي مرت بي فأجد أن كلاً منها كان بمثابة الدرجة التي ارتقيت عليها صاعدا في سلم الحياة لأنها زادت تعمقي للحياة وتوسعي في الاختبارات وأكسبتني هموماً قد استحالت إلى اهتمامات لا أرضى بالنزول عنها الآن

ولذلك أستطيع أن أقول أن الحياة السعيدة هي الحياة الحيوية التي تزيد فيها درجة الحياة حدة ويقظة وتنبهاً ، أي تعقلا . والهموم والأزمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية . وهي تزيدنا سعادة . أما الأمن من الكوارث والمعيشة الحسية والمسرات المادية فتجعلنا نعيش فيما يقارب الذهول ، فلا نتنبه ولا نحتد ، أي لا نتعقل

في حدة ودقة وامعان . ولو كانت هذه السعادة هي ما يجب أن نطلب لكان أدنأ الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة . وبالموت منا بالنوم

أجل . لم يكن الملك السابق فاروق سعيدا بكل حيوانيته

ولذة الدنيا هي في النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومآزقها وأزماتها . ثم تحدي كل هذه الأشياء بالتعقل . وذلك الذي يبغي السعادة في معناها الانساني العالي ، يجب أن يزيد حياته حيوية لا أن ينقص هذه الحياة بالاقتصار على المعيشة الحسية ، على المسرات

هذه هي السعادة التي تستحق أن ننشدها . السعادة هي الفهم بالتعقل

الفهرســـت